علم الدين سنجر الشجاعي ودوره في مصر

د. فاطمة الزهراء عبدالعزيز فرج أبوالعينين

المماليك [1]من أهم العناصر التي دخلت مصر كأفراد في جيشها أو في وظائف القصر، ثم زادت أهميتهم حتى وجدناهم يحكمون مصر فيما عرف بـــ (عصر المماليك) وما كان لهم أن يصلوا إلى هذه المكانة إلا لتفوقهم وشجاعتهم وإقدامهم المعهود، وهذا ما أهلهم إلى الانخراط في سلك الفئة الحاكمة حتى أصبحوا منهم. وكثير من المماليك من هو معروف، والأكثر منهم يحتاج إلى إضاءة على مسيرته حتى نزداد علماً بهم. ولذلك كان حديث البحث عن أحد هؤلاء والذي يعد من كبار قادة المماليك الذي أثر في تاريخ مصر المملوكية وهو (علم الدين سنجر الشجاعي).

---

(١) المماليك، تنقسم فئة المماليك إلى قسمين، الأول منها المماليك البحرية وهؤلاء كان ابتداءهم ٦٤٨هـ/١٢٥٠م، والملك الصالح هو من أنشأ المماليك البحرية بديار مصر. وسماهم بالبحرية لسكناهم معه في قلعة الروضة على بحر النيل. أما الفئة الثانية من المماليك فهي ما يطلق عليها اسم المماليك البرجية ويرجع تكوينهم إلى أيام السلطان قلاوون حين عزم ٦٨١هـ/ ١٢٨٢م على تكوين فرقة جديدة من المماليك ليكون اعتماده عليها، وأطلق عليهم اسم البرجية نسبة إلى أبراج القلعة التي أنزلهم بها، وحرص على تكوين أفراد هذه الفرقة من عناصر جديدة، ولذا غلب عليها عنصر الجركس الذين جيء بهم من بلاد القوقاز والبحر الأسود وقد عرف هؤلاء بالشجاعة والفروسية "الاسحاقي .محمد عبد المعطي المنوفي: لطائف أخبار الأول فيمن تصرف في مصر من أرباب الدول. تحقيق: عبد الرحيم عبد الرحمن. الكويت، ٢٠٠٢، ص ٢٩٥/ السيوطي. جلال الدين: كوكب الروضة في تاريخ النيل وجزيرة الروضة. تحقيق: محمد الششتاوي. دار الآفاق العربية- ط١، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠٢م، ص ٩٠ /حكيم أمين عبد السيد: قيام دولة المماليك الثانية، القاهرة. الدار القومية للطباعة النشر، ١٩٦٦م، ص ١١، ص ١٢".

إذن فمن هو؟

هو الأمير سنجر الشجاعي المنصوري[١]، ويلقب بـ (علم الدين) [٢]. ولد في دمشق وربُى بها عند امرأة تدعى (بست قسا) [٣]. ثم انتقل إلى مصر وتعلم بها الخط، وقرأ الأدب[٤]. وقد حفظت لنا كتب التاريخ وصفاً له، إذ يُذكر عنه أنه كان رجلاً طويلاً تام القامة، أبيض، أشقر اللحية[٥]، أزرق العينين[٦]، في أنفه كبر[٧]. كذلك لم تغفل الكتب ذكر بعض من صفاته ومنها أنه كان عليه وقار وهيبة وسكون[٨]، عنده خبرة تامة بالأمور وفطنة قوية[٩]، في أخلاقه شراسة، وله خبرة

(١) الصفدي. صلاح الدين خليل: الوافي بالوفيات. ألمانيا – فرانزشتاينر، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م، ج١٥، ص ٩٠.

(٢) ابن الفرات: ناصر الدين محمد عبد الرحيم: تاريخ ابن الفرات. تحقيق: قسطنطين زريق- نجلا عز الدين – بيروت – المطبعة الأميركانية- ١٩٣٩م. مج ٨ ، ص ١٨٨.

(٣) الصفاعي. فضل الله بن أبي الفخر: تالي وفيات الأعيان. تحقيق جاكلين سويلة – دمشق، ١٩٧٤م، ص ٩٠.

(٤) الصفدي: الوافي، ج١٥، ص ٤٧٨.

(٥) ابن عبد الظاهر. محيي الدين أبو الفضل عبد الله: تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور. تحقيق: مراد كامل. القاهرة، الشركة العربية للطباعة والنشر، ط١، ١٩٦١م، ص ٢٧٤.

(٦) ابن إياس. محمد بن أحمد الحنفي: بدائع الزهور في وقائع الدهور. تحقيق: محمد مصطفى. القاهرة. الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط٢، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م، ج١ ق١ ، ص ٣٨٤.

(٧) الذهبي. شمس الدين بن عبد الله محمد بن أحمد: تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام. تحقيق :بشار عواد معروف- بيروت دار الغرب الإسلامي، ط١، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م مج، ١٥، ص ٧٦٧.

(٨) الصفدي: الوافي، ج١٥، ص ٤٧٦.

(٩) ابن عبد الظاهر: تشريف الأيام، ص ٢٧٤.

في السياسة والعمارة والرأي، وفي طبيعته جبروت وانتقام وظلم[1]. وربما ذاك الانتقام وذلك الظلم المذكوران عنه راجع إلى تربيته، إذ تمت الإشارة فيما سبق أنه رُبي عند امرأة تسمى بست قسا، مما يوضح أن حياته لم تكن تسير في مسارها الطبيعي، وأن أمه لم تتولى تربيته بنفسها، فنشأ جافاً غليظاً بعيداً بعض الشيء عن دفئ الأسرة وما تعطيه من مشاعر سامية، ولكن لم يتضح في كلام المؤرخين عنه لماذا كانت هذه النشأة؟ ولمَ لَمْ يُربى في كنف أمه؟.

كان الشجاعي من مماليك الملك المنصور قلاوون*[2]، حيث أن السلطان منصور قلاوون عندما تولى الدولة المملوكية سنة ٦٧٨هـ/١٢٧٩م عين أربعين من مماليكه في وظيفة إمرة الأمراء، وكان منهم سنجر الشجاعي[3]، فكان يتولى شد[4] الدولة المنصورية[5]، وحينما شغرت الوزارة من وجود وزير بها جلس هو مكان الوزير، وكتب على عادة الوزراء وولى وعزل واستخدم وصرف وهكذا

(١) الذهبي: تاريخ الإسلام مج ١٥ ، ص ٧٦٧.

(*) المنصور قلاوون: تولى سلطنة المماليك، سنة ٦٧٨هـ/١٢٧٩م، وخطب له على المنابر المصرية والشامية، وضربت السكة باسمه، وجرت الأمور في البلاد بمقتضى رأيه، ورفع قدر عتقائه، وصيرهم ولاة الأمور وقادة للعساكر، ونواباً في الممالك. توفى ٦٨٧هـ/ ١٢٨٨م "العيني. بدر الدين محمود: عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان. عصر سلاطين المماليك. تحقيق: محمد محمد أمين .القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م، ج٢، ص ٢٢٦، ص ٢٢٧.

(٢) أبو المحاسن بن تغري بردي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة. دار الكتب المصرية- القاهرة، ١٣٥٨هـ/ ١٩٣٩م.، ج ٨، ص ٥١.

(٣) المقريزي. تقي الدين أحمد بن علي: السلوك لمعرفة دول الملوك .نشره: محمد مصطفى زياده. القاهرة. لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٩٤م ، ج١، ق٣، ص ٦٧١.

(٤) الشد: الشاد بمعنى الأستاذ. وشاد الدواوين كانت مهمته مرافقة الوزير والتفتيش على مالية الدواوين وعلى موظفيها "محمد قنديل البقلي: التعريف بمصطلحات صبح الأعشى. القاهرة. الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٣م، ص ١٩١".

(٥) أبو المحاسن بن تغري بردي: الدليل الشافي على النهل الصافي. تحقيق: فهيم محمد شلتوت. المملكة العربية السعودية- مركز البحث العلمي وإحياء التراث، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م، ج١، ص ٣٢٥.

تنقلت به الأحوال إلى أن تولى وزارة الديار المصرية[١]، فكان أول من ولي الوزارة من الأمراء، وأول وزير ضربت على بابه الطبلخانة[٢]، على غرار وزراء الخلافة بالعراق[٣]. ويلاحظ أنه كان نادراً ما يكون الوزير في دولة المماليك من الأمراء العسكريين، وقد كانت وظيفته من قبل إدارية لا يليها أمير مملوكي إلا في النادر، وإنما كانت الوزارة هي الوظيفة الأولى لرجال القلم*[٤].

أما عن سبب تسميته بالشجاعي فيقال أنه اتصل بأمير يسمى (عز الدين الشجاعي) كان يعمل في شد الدواوين، وكان وثيق الصلة به فنسب إليه[٥]. وفيما يتعلق بزواج علم الدين الشجاعي فقد تزوج من أم الأمير بيدرا*[٦].

---

(١) ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، مج٨، ص ٩٦، ص ١٨٨.

(٢) الطبلخانة: كلمة فارسية معناها فرقة الموسيقى السلطانية أو بيت الطبل وهو المكان المخصص من حواصل السلطان لطبول الفرقة وأبواقها ويُحكم على ذلك أمير يعرف بأمير علم."محمد قنديل:مصطلحات صبح الأعشي، ص ٢٢٨، ص ٢٢٩".

(٣) السيوطي. جلال الدين عبد الرحمن الحافظ: حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، بيروت، المكتبة العصرية، ط١، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م، ص ١٧٣.

(*) رجال القلم:هم الكتاب وسموا بذلك لأنهم يعملون بأقلامهم،وكانوا يتولون الوزارة ومنهم كتاب ديوان الإنشاء وكتاب السر وكتاب الدست، "محمد قنديل : مصطلحات صبح الأعشي، ص ٢٠".

(٤) على إبراهيم حسن: تاريخ المماليك البحرية وفي عصر الناصر محمد بوجه خاص، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٤٤م، ص ٦٥.

(٥) أبو المحاسن بن تغري بردي: المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي، تحقيق محمد محمد أمين. القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مركز تحقيق التراث، ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م، ج٦، ص ٨٠.

* بيدرا: أحد مماليك الملك المنصور قلاوون، تنقلت به الأحوال إلى أن صار وزير للملك المنصور، ولم يزل على وزارته إلى أن توفى الملك المنصور، وأيام قلائل في أوائل ملك الأشرف. ثم جعله الملك الأشرف نائب السلطة بالديار المصرية، وكانت نهاية بيدرا القتل عقاباً له على اشتراكه في قتل الأشرف، ٦٩٣هـ /١٢٩٣م"ابن الفرات: تاريخ ابن الفرآت، مج ٨، ص ١٨٨.

(٦) الصفدي: الوافي، ج١٥، ص ٤٧٧.

وحياة سنجر الشجاعي جديرة بأن تدرس بتفاصيلها للتعرف على واحد من أهم الشخصيات المؤثرة في أحداث العصر المملوكي.

الحياة السياسية:

حينما جلس السلطان قلاوون على عرش السلطنة ٦٧٨هـ/ ١٢٧٩م اتخذ من سنجر الشجاعي أميراً له(١)، وعينه في شد الدولة(٢)، واستخراج الأموال(٣).

وفي ٦٧٩هـ/ ١٢٨٠م حينما خرج المنصور قلاوون إلى الشام فإنه أكد على الشجاعي في تحصيل الأموال(٤)، كما عينه نائباً عنه على الديار المصرية(٥)، وأوصاه بعدة أمور يجب عليه مباشرتها ومنها أنه أوصاه على السجون وحفظها وحفظ من بها من المعتقلين والأسارى، ومنع المفسدين من الاجتماع مع بعضهم البعض، والإنكار على من يمشي ليلاً بغير حاجة، وله حق الإنكار على المفسدين وشاربي المنكرات، وعليه إقامة حدود الله فيمن يوجد سكراناً(٦). ليس هذا فقط، بل

---

(١) العيني:عقد الجمان، ج٢، ص ٢٢٧.

(٢) النويري.شهاب الدين أحمدعبدالوهاب: نهاية الأرب في فنون الأدب.تحقيق:الباز العريني، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م. ، ج٣١، ص ٩.

(٣) بيبرس الدودار: زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة. تحقيق: زبيدة محمد عطا. القاهرة. عين للدراسات والبحوث، ٢٠٠١م. ج٩،ص١٨٤

(٤) العيني: عقد الجمان، ج٢، ص ٢٢٥/ النويري: نهاية الأرب، ج٣١، ص ٧٠/ محمود رزق سليم: عصر سلاطين المماليك- القاهرة. مكتبة الآداب، ١٣٦٦هـ/ ١٩٤٧، ج١، ص ٣١١.

(٥) ابن أيبك الدواداري. أبوبكر بن عبد الله: كنز الدرر وجامع الغرر (الدرة الزكية في أخبار الدولة التركية). تحقيق أولرخ هارمان- القاهرة، ١٣٩١هـ/ ١٩٧١م، ج٨، ص ٢٧٠.

(٦) ابن على الكاتب. شافع العسقلاني: الفضل المأثور من سيرة السلطان الملك المنصور. تحقيق: عمر عبد السلام تدمري. صيدا، بيروت – المكتبة العصرية، ط١، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م، ص ١١٩، ص١٢٠.

إن المنصور حينما قفل عائداً إلى الديار المصرية من الشام كان على الشجاعي أن يجهز البلاد لاستقباله، فتم تجهيز الزينة ونصب القلاع، ورتب في كل منزلة ينزل فيها السلطان للاستراحة العديد من أصناف الطعام، فيجهز له من الدقيق ستون قطعة، ومن الشعير أربعمائة أردب، ومن الأغنام مائة رأس، ومن الدجاج مائتي طائر، ومن الحمام خمسين، ولم ينس التبن والحطب أيضاً[1]. والملاحظ أن الأعمال التي وكُل بها سنجر الشجاعي من قبل السلطان المنصور قلاوون لا تخرج كلها عن أعمال المحتسب الذي كان عليه مراقبة وضبط الأسواق ومنع الغش والتدليس وإراقة الخمور ومعاقبة شاربيها. وعلى هذا فيمكن أن يقال أن أحد الوظائف التي تبوأها سنجر الشجاعي كانت وظيفة الحسبة .ومثلما كان المنصور قلاوون يُوصي الشجاعي غائباً، كذلك كان يوصيه حاضراً، إذ يذكر أن السلطان المنصور قلاوون أحضره بين يديه قائلاً له "يا سنجر اعرف نعم الله عليك وأشكر الله على ما أولاكم من النعم، وقد وليتك الديار المصرية أن تكون وزيراً بها، فاعرف كيف تكون، وهذه خزائن الإسلام فارغة فاملأها لي ذهباً واتق الله في نفسك، ولا ترغب في أموال الناس، ولا تدع أحداً يشكو منك، ولا تملأ خزائن الإسلام إلا من المال الحلال، ولا تميل إلى الظلم، واعلم ما أنت فيه، واتق الله في نفسك"[2] .وعلى ما يبدو فإن المنصور قلاوون كان يخشى من سنجر الشجاعي أن يظلم أو يسيئ معاملة الرعية ولذلك تراه أكثر من مرة يكرر في حديثه السابق إليه عبارة (اتق الله في نفسك) مما يدل على أن المنصور لم يكن مطمئن كامل الاطمئنان إلى تصرفات سنجر الشجاعي.

---

(١) ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات. مج ٧، ص ٢٢٧.

(٢) الخزنداري. قرطاي العزي: تاريخ مجموع النوادر مما جرى للأوائل والأواخر (٦١٦-٦٩٣هـ). تحقيق: عمر عبد السلام تدمري. المكتبة المصرية – صيدا – بيروت، ط١، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م، ص ٢٨٢.

على أن توكيل الشجاعي بحفظ البلاد في غياب المنصور لم يكن على الدوام، لأن المنصور كان يستصحب معه الشجاعي في بعض الأحيان. وقد حدث ذلك حينما بلغ المنصور قلاوون أن التتار[1] قد هجمت على دمشق ووصلوا إلى حلب، فخرج إليهم السلطان المنصور قلاوون مصطحباً معه أمراؤه[2]. وكان فيهم سنجر الشجاعي والذي اشترك في ملحمة عظيمة انتصر التتار في أولها، واضطربت ميمنة المسلمين، ثم حمل التتار على ميسرة المسلمين فكسروها، إلا أن هؤلاء الأمراء حينما رأوا ثبات السلطان وسط تلك الهزائم فإنهم حملوا على التتار عدة حملات إلى أن جاءهم الفتح، وجرح قائد التتار، وتمت هزيمتهم في موقعة حمص*[3].

وفي ٦٨٦هـ/ ١٢٧٨م خرج المنصور قلاوون من مصر قاصداً الشام،

---

(١) التتار أول ظهورهم ٦٢٥هـ/ ١٢٣٧م حينما اجتاحوا بلاد المسلمين فأخذوا بخارى وسمرقند، وملكوا أكثر المعمور من الأرض وأحسنه وأبادوا البلاد قتلاً وسبياً، ولما دخلت ٦٥٦هـ/ ١٢٥٨ م وصل التتار إلى بغداد بزعامة هولاكو وقتلوا الخليفة العباسي المستعصم، وظلوا على غيهم إلى أن استطاع بيبرس البندقداري أن يهزمهم في موقعة عين جالوت . "الإسحاقي، لطائف أخبار الأول، ص ٢٩٦، ص ٢٩٧".

(٢) ابن خلدون. عبد الرحمن بن محمد: العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر- بيروت - لبنان - مؤسسة الأعلمي، ١٣٩١هـ/ ١٩٧١م، ج٥، ص ٣٩٨.

* حمص . بلد مشهور قديم وبه قلعة حصينة وهي بين دمشق وحلب، وبها الكثير من المزارات والمشاهد كمشهد على بن أبي طالب (رضي الله عنه)." ياقوت الحموي ، أبو عبد الله: معجم البلدان - ألمانيا - معهد تاريخ العلوم العربية ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م . مجلد ٢ ص٣٣٤، ص ٣٣٦".

(٣) الذهبي : تاريخ الإسلام، مج ١٥ ص٢١٩، ص ٢٢٠.

فجعل الشجاعي نائباً عنه في الديار المصرية إلى حين عودته[١]. ويتضح من هذا اعتماد المنصور قلاوون اعتماداً كلياً على سنجر الشجاعي، بحيث ولاه أكثر من مرة نيابة البلاد عنه إلى أن انقلب الحال، وحدث مالا يمكن تصوره، ألا وهو عزل سنجر الشجاعي ومصادرته وحبسه،إذ أنه ما كادت تدخل ٦٨٧هـ/ ١٢٨٨م حتى قبض السلطان قلاوون على الشجاعي[٢] وحبسه وصادر أمواله[٣]. على أن المنصور لم يصدر حكمه على الشجاعي هذا من فراغ، وإنما بناء على عدة أمور وتصرفات من قبل الشجاعي، أعقبها صدور شكاوى ضده وثبت إدانته فيها- فماذا فعل الشجاعي جعل المنصور ينقلب عليه؟

حينما جاء ناصر الدين محمد بن عبد الرحمن المقدسي[٤] إلى مصر تقابل

---

(١) الكتبي. محمد شاكر: عيون التواريخ . تحقيق، فيصل السامر، نبيلة عبد المنعم داود .العراق، دائرة الشئون الثقافية والنشر، ١٩٨٤م. ج٢١ ص ٣٩٣/اليونيني. قطب الدين موسى بن محمد: ذيل مرآة الزمان-حيدر آباد – الدكن- الهند، ط١، ١٣٨٠ه/ ١٩٦١م ج ٤ ص ٣١٥.

(٢) ابن دقماق.صارم الدين إبراهيم بن محمد: النفحة المسكية في الدولة التركية من كتاب الجوهر الثمين في سير الخلفاء والملوك والسلاطين – تحقيق عمر بن عبد السلام تدمري. المكتبة العصرية – صيدا – بيروت، ط ١ ، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م، ص ٨٦.

(٣) مفضل بن أبي الفضايل: تاريخ سلاطين المماليك – النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد.تحقيق بلوشت إدجار – فرنسا – باريس، ٢٠٠٤، ج٣، ص ٦٣ .بينما ذكر ابن إياس أن عزل ومصادرة وحبس الشجاعي كانت ٦٨٥هـ/ ١٢٨٦م .بدائع الزهور، ج١، ص ٣٥٦، ولكن الذي عليه أكثر المؤرخين أن ذلك كان في ٦٨٧هـ/ ١٢٨٨ م.

(٤) ناصر الدين محمد بن عبد الرحمن المقدسي كان إماماً خطيباً قاضياً مفتى المسلمين تولى التدريس في المدرسة الغزالية ففسر بها القرأن، وقد فوض له السلطان الملك المنصور نظر الأوقاف بدمشق، وهو الذي تولى كتابة كتاب النصر عقب فتح قلعة الروم للشجاعي – كما سيأتي ."ابن الجزري.شمس الدين محمد بن إبراهيم : تاريخ حوادث الزمان وأنبائه ووفيات الأكابر والأعيان من أبنائه.تحقيق:عمر عبد السلام تدمري، المكتبة العصرية – صيدا – بيروت ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٦م ، ج ١ ص٢٠٥/النويري: نهاية الأرب ج٣١، ص ١٥٧".

مع الشجاعي وتحدث معه في أمر بنت الملك الأشرف موسى[١]، وأن أباها قد خلف لها أملاكاً كثيرة، وأنها باعت جميع أملاكها ورماها بالسفه[٢]، وأن الملك الصالح كان قد حجر عليها وأنه يثبت سفهها ويسترجع جميع ما باعت وبعد ذلك يشترون منها[٣]. وعرضوا ذلك على جميع القضاة بالديار المصرية فلم يُجابوا إلى ذلك سوى من القاضي زين الدين بن مخلوف المالكي، فعمل محضراً وشهد فيه أحد الرجال على صحة ذلك. ثم أحضروا أحد الذين اشتروا من بنت الأشرف ويدعى "السامري" وأثبتوا له أنها كانت سفيهة ومحجور عليها وقت أن باعته[٤]. وكان أن أبطلوا جميع ما كانت باعته للسامري ولغيره. وكذلك كان السامري شريك فطالبوه وشريكه برد كل ما أخذاه وما عاد عليهم منه من عشرين عاماً مضت[٥].

ولم يكتف الشجاعي بذلك، بل شرع في طلب الدماشقة الذين استفادوا من أموالها ليحضروا إلى مصر ليستخرج منهم الأموال، وقد ذكر له أن كل من دخل دمشق وظلم فيها هلك، لذلك كان يستدعي رجالها إلى مصر قائلاً "نحن نطلب كبارهم إلى عندنا ونأخذ أموالهم وأملاكهم وما نروح إليهم"[٦]. وبالفعل أحضر جماعة من أكابر الدماشقة إلى مصر وطالبهم بالأموال فامتنعوا معتذرين بأنهم إنما

---

(١) بنت الملك الأشرف موسى: هي ملكة خاتون ابنة الأشرف موسى بن العادل أبوبكر بن أيوب، أوصى لها أبوها بجميع جواهره، ووقف دار السعادة والبستان، فتزوجها الجواد يونس بن ممدود ثم طلقها، فتزوجها المنصور محمود بن الصالح إسماعيل بن العادل أبوبكر، فولدت له ولد وتوفيت ٦٩٤هـ/ ١٢٩٤م "المقريزي: السلوك ج١، ق٣ ، ص ٧٣٥".

(٢) النويري: نهاية الأرب، ج٣١، ص ١٤٧.

(٣) اليونيني: ذيل مرأة الزمان، ص ٣١٦.

(٤) الكتبي: عيون التواريخ ج٢١، ص ٣٩٤.

(٥) المقريزي: السلوك. ج١ ق ٣ ، ص ٧٣٦.

(٦) الكتبي: عيون التواريخ، ج٢١، ص ٣٩٥.

حضروا على خيل البريد حينما استدعاهم، وأن أموالهم بدمشق، وسألوه أن يقرر عليهم ما يحملونه إليه بعد عودتهم إلى دمشق[١]، إلا أن سنجر الشجاعي رفض هذا العرض خشية أنهم إذا توجهوا إلى دمشق دون تحصيل الأموال فيقومون بطلب الشفاعة فيها فيسامحوا، فكان أن طلب من جماعة من التجار أن يقرضوا الدماشقة المال، فوافقوا. ولما عاد الدماشقة إلى مواطنهم أدوا المال إلى أصحابه التجار[٢]. وكان من جراء هذا الظلم الواقع على الدماشقة أن الشاميين والمصرين قد اتفقوا على الشجاعي بالاتفاق سراً مع بعض الأمراء الكبار ومباطنتهم، فأقاموا من بينهم شخص يعرف بـ "ابن الجوجري" ليتقدم بشكوى ضد سنجر الشجاعي وأنه على أتم الاستعداد لمناظرته ومرادفته[٣]. وبالفعل ذهب الجوجري إلى أمير دمشق "حسام الدين طرنطاي"[٤] يشكو له الشجاعي، وأنه ما رزق رزقاً من يوم تولى الشجاعي، فعرض عليه طرنطاي أن يشكيه أمام المنصور قلاوون، فوافق الجوجري وذهب إلى المنصور وتلا شكوته من الشجاعي عليه، فرق المنصور لحال الجوجري وذم الشجاعي[٥]، وبعث في طلبه، وكانت المناظرة بين الجوجري والشجاعي، وحاجه الجوجري أمام السلطان قلاوون، وكان مما حاججه عليه أنه باع للفرنج الكثير من الرماح والسلاح، فاعترف سنجر بذلك مبرراً فعله بأنه باع لهم من الرماح والسلاح

---

(١) ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات مج ٨ ، ص ٦٢.

(٢) النويري: نهاية الأرب، ج٣١ ، ص ١٤٩.

(٣) ابن أيبك الدواداري: كنز الدرر، ج ٨ ، ص ٢٨١، ص ٢٨٢.

(٤) حسام الدين طرنطاي: كان أوحد أهل عصره، جعله الملك المنصور قلاوون نائبه، وكان هو المتصرف في مملكته، فلما مات المنصور وتسلطن ولده الملك الأشرف خليل استنابه أياماً إلى أن رتب أموره، كان طرنطاي سديد الرأي، مفرط الذكاء، فلما رسخت قدم الأشرف في السلطنة أمسكه.وتوفى ٦٨٩هـ/ ١٢٩٠ م "أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج٨، ص ٣٨٣".

(٥) الكتبي: عيون التواريخ، ج٢١، ص ٤١٥.

ما فسد وعدم الانتفاع به، كما أنه باعه بأضعاف قيمته ليعلم الفرنج أنهم يبيعونهم السلاح هواناً بهم واستحقاراً لأمرهم وعدم مبالاة بهم[1]. فرد الجوجري على ذلك قائلاً له "الذي خفى عنك أعظم مما لمحت ،هذا الكلام الذي صورته أنت بخاطرك وأعددته جواباً، وأن ما يقوله الفرنج في هذا أن صاحب مصر قد احتاج حتى باع سلاحه لأعدائه" وعند هذا الحد من المناظرة استشاط السلطان غضباً، وأصدر أمره بمصادرة علم الدين على كثير من الذهب، وألا يبيع شيئاً من خيله وسلاحه لسداد ما طولب به، وأن لا يحمل المطلوب منه إلا عيناً، فاستجاب الشجاعي وفعل[2].

ليس هذا فحسب، بل أنه بعد أن عُزل الشجاعي عن الوزارة وصودر بلغ المنصور قلاوون عنه أنه كان قد أسرف في المظالم، وأن في سجنه جماعة كثيرة تقدر بالمئات، وقد مر عليهم في سجنهم شهور وسنين، فأمر المنصور النظر في أمر هؤلاء، وأن يكشف أمرهم وبالفعل تم التحقق من صحة ذلك[3]. فأمر المنصور الأمير حسام الدين طرنطاي نائبه بعرضهم وإطلاق من يجب إطلاقه منهم. ففعل وأفرج عن جميعهم حتى قيل عن طرنطاي "باء بأجرهم كما باء الشجاعي بإثمهم ووجد سواء عاقبة ظلمه"، فهاهو الشجاعي يفُتضح أمره أمام المنصور قلاوون، ويتبين سوء سيرته مع الرعية، كما أنه يجند من أفراد الدولة من يساعده ويلبي حوائجه مثلما فعل القاضي الذي أيد بالتواطؤ الحكم بالسفه على بنت الملك الأشرف. كذلك يظهر شدة وعسف سنجر في جمع الأموال. ولم تفلح نصائح المنصور قلاوون له من قبل حين قاله له اتق الله في نفسك فتمادى في ظلمه وغيه.

وقد نالت الشجاعي دعوات مظلوميه عليه، فقد كانوا دائمي الدعاء عليه وهو لا يكترث لذلك حتى قال أحدهم:

---

(١) النويري: نهاية الأرب، ج٣١، ص ١٥٣، ص ١٥٤.

(٢) ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، مج ٨ ص ٦٣.

(٣) بيبرس الدودار: زبدة الفكرة، ج٩، ص ٢٨١.

أتهزأ بالدعاء وتزدريه وما يدريك ما فعل الدعاء

سهام الليل ما تخطئ ولكن لها أجل وللأجل انقضاء[١]

كما يظهر لنا أن المنصور قلاوون ما كان له دخل بما يفعله الشجاعي بالرعية، بدليل أنه عندما كثر الكلام حول سوء استخدام الوزير سنجر الشجاعي لصلاحياته أمر المنصور قلاوون على الفور بالتحقيق معه وعندما ثبت صحة ما أشيع عنه عزله وأمر بمصادرته. كما يُبرز ما كان من استقلال بعض الشخصيات لمناصبها من أجل منافع خاصة[٢].

هذا وقد تم الإفراج عن سنجر الشجاعي في نفس العام الذي قبض عليه فيه٦٨٧هـ/ ١٢٨٨م، لكن بعد أن أُخذ منه خمسة وستون ألف دينار عيناً[٣]، فكانت المدة التي قضاها في محبسه تقدر بشهر، إذ حُبس في الثاني من ربيع الأول، وأفرج عنه في التاسع من ربيع الآخر[٤]، وربما أدرك المنصور أن في مصادرة الشجاعي كفاية عن العقوبة من جراء ما اقترفه في حق الرعية من مصادرات، وبالتالي رأى من العدالة أن يرد له حريته بعد ما صودرت أغلب ممتلكاته[٥].

لكن مما هو جدير بالذكر أنه على الرغم من غضب السلطان على الشجاعي، وبالرغم مما تعرض له الشجاعي من المصادرة والحبس،إلا أن ذلك لم يكن له أثراً

---

(١) العيني: عقد الجمان، ج٢، ص ٣٦٩، ص ٣٧٠.

(٢) حياة ناصر الحجي: السلطة والمجتمع في سلطنة المماليك (٦٦١- ٧٨٤هـ/ ١٢٦٢ - ١٣٨٢م) دراسة تاريخية وثائقية – الكويت- جامعة الكويت – لجنة التأليف والتعريب والنشر، ط١، ١٩٩٧م، ص ٨٣.

(٣) ابن دقماق: النفحة المسكية، ص ٨١، المقريزي: السلوك، ج١، ق٣، ص ٧٤٢.

(٤) محمود رزق سليم: عصر سلاطين المماليك، ج١، ص ٣١١.

(٥) حياة الحجي: السلطة والمجتمع، ص ٢٧.

مستقبلاً يعود بالصلاح على الشجاعي بامتناعه عن ظلم الناس ومصادرتهم. وكذلك لم يكن له أثر على المنصور قلاوون باستبعاد الشجاعي عن أية تحصيل للأموال حتى وإن استخدمه في أية وظيفة أخرى، إذ أننا نجد المنصور بعد أن أفرج عن الشجاعي يستصحبه معه إلى دمشق، بل ويأمره أن يكون متعيناً على تحصيل الأموال بدمشق وذلك ٦٨٨هـ/ ١٢٨٩م ،وأول ما بدأ به الشجاعي عمله في دمشق أن صادر تقي الدين توبه[١]، فوجد له أخشابا كثيرة وبضائع، فعرض ذلك على أهل دمشق بأضعاف ثمنه حتى جمع من وراء ذلك خمسمائة ألف درهم[٢]. وكان الذي حدا بالشجاعي أن يفعل ذلك بتوبة ما كان من عداوة قديمة بينهما، لذلك أراد الشجاعي أن يطلع السلطان قلاوون أن توبه قد حصل على أموالاً كثيرة بدون وجه حق. وحينما عاد السلطان منصور والشجاعي إلى مصر فقد تم استصحاب توبة معهما مقيداً، وقد تشفع فيه الأمير حسام الدين طرنطاي والأمير زين الدين كتبغا[٣]، وضمناه عند السلطان المنصور قلاوون فأفرج عنه. وعندما علم سنجر الشجاعي بذلك تألم كثيراً. ومما يذكر في هذا أن الشجاعي حينما كان توبة مقيداً كان قد كتب

---

(١) تقي الدين توبه:هو أبوعلى بن مهاجر بن شجاع بن توبه، كان أولاً تاجراً، وتعرف بالسلطان المنصور قلاوون حينما كان المنصور أميراً قبل أن يلي الملك، فلما آل إليه الأمر ولي توبة وزارة الشام ثم عزله وصودر أكثر من مرة توفى ٦٩٨هـ/ ١٢٩٨م "الصفدي. صلاح الدين : أعيان العصر وأعوان النصر.تحقيق:على أبو زيد وآخرون. دار الفكر المعاصر بيروت –لبنان ط١، ١٤١٨/ ١٩٩٨م، ج٢، ص ١٣٩، ص ١٤٠".

(٢) المقريزي: السلوك ج١، ق٣ ، ص ٧٤٨.

(٣) زين الدين كتبغا: أصله من التتار، أخذه الملك المنصور قلاوون وجعله من مماليكه وصار من أكابر الأمراء واستمر على ذلك في الدولة الأشرفية حتى قتل الأشرف وتسلطن أخوه الناصر محمد إلى أن تم الاتفاق على خلع الناصر، وقد كان.وتولى كتبغا سلطنة الديار المصرية ٦٩٤هـ/ ١٢٩٤م وتلقب بالعادل وكانت وفاته ٧٠٢هـ/ ١٣٠٢م "أبو المحاسن. النجوم الزاهرة، ج٨، ص ٥٥".

إلى ولاة كل من نابلس[١] والقدس[٢] والخليل[٣] بتجهيز من سيتم مصادرته هناك من المباشرين والمستخدمين، لكن حينما بلغه نبأ الإفراج عن توبة غضب وامتنع من الحديث في مصادرة هؤلاء الجدد[٤]، وكان ذلك من الأمور المستحسنة.

وفي ٦٨٩هـ/ ١٢٩٠م وردت الأخبار إلى السلطان المنصور قلاوون بأن الإفرنج بعكا[٥] قتلوا جماعة من التجار المسلمين، فعقد عزمه على الخروج لقصدهم وفتح عكا[٦]، إلا أن السلطان وهو في الطريق فقد ألم به مرض شديد، ولم يمكث إلا أياماً ثم توفى[٧]، وعندئذ اجتمع طرنطاي ثانية مع المماليك والأمراء وأفاضوا

---

(١) نابلس: مدينة مشهورة بأرض فلسطين بين جبلين مستطيلة لا عرض لها، كثيرة المياه ، ومعنى نابلس ناب الحية "ياقوت الحموي. معجم البلدان مج ٤، ص ٧٣٤".

(٢) القدس: بلد بالشام قرب حمص،من فتوح القائد شرحبيل بن حسنه، وبه بحيرة تسمى بالقدس أيضاً."ياقوت الحموي، معجم البلدان مج٤، ص ٣٩".

(٣) الخليل: على مقربة من بيت المقدس بينهما مسيرة يوم، وبها قبر الخليل إبراهيم عليه السلام وهي بلد بها حصن وعمارة وموقع طيب متنزه "ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٢، ص ٤٦٨".

(٤) النويري : نهاية الأرب ج٣١، ص ١٦٤، ص ١٦٥.

(٥) عكا: قلعة على ساحل الشام من ناحية الأردن من أحسن بلاد الساحل وأعمرها وهي حصينة كبيرة الجامع كانت قديماً بيد المسلمين إلى أن أخذها الفرنج "ياقوت الحموي: معجم البلدان، مج٣، ص ٧٠٧، ص ٧٠٩".

(٦) الخزنداري: تاريخ مجموع النوادر مما جرى للأوائل والأواخر، ص ٣٢٣/ العيني: عقد الجمان، ج٣، ص ١٠/فايد حماد أحمد عاشور: الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين والمغول في العصر المملوكي. جروس برس. طرابلس -لبنان، ط١، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م. ص ١٩٥.

(٧) بيبرس المنصوري: مختار الأخبار وتاريخ الدولة الأيوبية ودولة المماليك البحرية حتى ٧٠٢هـ. تحقيق: عبد الحميد صالح حمدان. القاهرة، الدار المصرية اللبنانية، ط١، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م، ص ٨٨.

بينهم الرأي ثم قالوا لطرنطاي "أنت تعلم أمرك مع الأشرف[١] وبغضته فيك، وتعلم ما بينك وبين الشجاعي من البغضة، فخذ لنفسك قبل استحكام الأمر" فرفض طرنطاي عرض المماليك والأمراء قائلاً "لا سُمع عني أني خنت أستاذي ولا ولده من بعده"[٢].

وكان أن ملك بعد السلطان منصور قلاوون ابنه الملك الأشرف صلاح الدين خليل وذلك في ٦٨٩هـ/ ١٢٩٠م[٣]. ولما استقرت الأمور له وقبر والده خلع على سنجر الشجاعي واستقر عليه وزيراً كما كان في حياة والده[٤].

- علاقة طرنطاي بسنجر الشجاعي:

كان أول ما فعله الملك الأشرف أن قبض على حسام الدين طرنطاي، فقد كان الأشرف يتوهم أن طرنطاي يمنعه من مزاولة مهام السلطنة[٥]، هذا بالإضافة إلى كراهية الأشرف لطرنطاي لأنه كان يطرح جانبه في أيام أبيه، ويُهين نوابه، ويؤذي من يخدمه، وكان أميل إلى أخيه الملك الصالح علاء الدين على بن قلاوون عنه[٦]. كذلك كان الشجاعي يكره طرنطاي أيضاً، فقد كان بينهما إحن عظيمة

---

(١) الأشرف: تولى سلطنة المماليك بعد وفاة أبيه الملك المنصور ٦٨٩هـ/ ١٢٩٠م كان ملكاً مهيباً، كامل الشجاعة وافر الكرم، مظفراً في حروبه،قتل غدراً وهو في رحلة للصيد ٦٩٣هـ/١٢٩٣م فكانت مدة ملكه ثلاث سنوات وشهرين"ابن حبيب: الحسن بن عمر بن الحسن : تذكرة النبيه في أيام المنصور ونبيه. تحقيق : محمد محمد أمين، القاهرة، مطبعة دار الكتب، ١٩٧٦، مج ١ ، ص ١٦٧".

(٢) العيني : عقد الجمان، ج٣، ص ١٣/ ابن دقماق :النفحة المسكية، ص ٨٤.

(٣) بيبرس الدودار: زبدة الفكرة، ج٩، ص ٢٨٨، النويري: نهاية الأرب، ج٣١، ص ١٧٧.

(٤) العيني : عقد الجمان، ج٣، ص ٢٤/ ابن إياس: بدائع الزهور، ج١، ص ٣٦٥.

(٥)العيني : عد الجمان، ج٣، ص ٢٦-ص ٢٧

(٦)المقريزي. تقي الدين أحمد بن على: المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار. تحقيق: أيمن فؤاد سيد. لندن مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي ١٤٢٤ه/٢٠٠٣م،مج٤،ص٥٥٠

وشحناء قديمة[١]، فقد كان الشجاعي يرى فيه أنه السبب فيما جرى عليه من العزل والمصادرة[٢]، كما كان بينهما عداوة على الرتبة[٣]، ولذلك ما إن أخذ الأشرف رأى الشجاعي وبيدرا وغيرهما من الأمراء في أمر القبض على طرنطاي وجد قبولاً منقطع النظير، فقد كانوا يعلمون أن طرنطاي إذا استمر بالحكم ما كان يدع لأحد منهم كلمة، فاتفقوا على القبض عليه[٤]، وسلمه الأشرف إلى الشجاعي وأمره بتعذيبه ومصادرة أمواله، فسلط وصب الشجاعي عليه العذاب أنواعاً إلى أن مات[٥]. ثم عمد إلى مصادرة الأموال، إذ نزل الشجاعي إلى داره وحمل ما في خزائنه وذخائره[٦]، وتحفظ على عياله ونسائه وجميع حاشيته من كبير وصغير، فكان الشجاعي ينزل من القلعة كل يوم ويعاقب جماعة الأمير طرنطاي، فظهر له من الأموال والتحف مالا يسمع بمثله،[٧] كما وجد الشجاعي في منزله ورقة مكتوب فيها "مائة ألف وعشرين ألف دينار" فحمل الشجاعي هذا كله إلى السلطان[٨]، الذي أمر بتفرقة خيوله ومماليكه وشفى غيظه بإعدامه[٩]. وبهذا انتهت حياة حسام الدين طرنطاي الذي يذكر له هو والأمير الشجاعي أنهما يتمتعان بمنزلة عالية عند باقي الأمراء، وأن هذين الأميرين عند الأمراء والجند والولاه محلهما

(١) بيبرس المنصوري: مختار الأخبار، ص ٩١.
(٢) ابن دقماق: النفحة المسكية، ص ٨٨.
(٣) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج٧، ص ٣٨٤.
(٤) العيني: عقد الجمان، ج ٣، ص ٣٠.
(٥) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة، ج٧، ص ٣٨٤.
(٦) ابن عبد الظاهر: تشريف الأيام والعصور، ص ٢٨٦.
(٧) ابن إياس: بدائع الزهور، ج١، ص ٣٦٦.
(٨) العيني: عقد الجمان، ج٣، ص٣٢.
(٩) بيبرس الدودار: زبدة الفكرة، ج٩، ص ٢٩٠.

عندهم محل السلطان، ومحل السلطان محل الخليفة، وكان لا يمكن أن يتحدث أحد من هؤلاء إلا معهما[١]. والناظر في عصر المماليك وأبناءه يرى أنه لم يكن في الإمكان أن تسير السلطنة المملوكية على غير ذلك من إقامة أقوى المماليك وأوفرهم ثروة أو أكثرهم رجالاً في السلطنة، وذلك أن الأمير المملوكي فضلاً عن مساواته للسلطان في الرق والعتق والتربية والخدمة، فقد بلغ من الثراء كذلك ما جعله نداً وخصماً للسلطان، كما تدل هذه المصادرات على مبلغ ثروة الأمير من الأمراء كما سبق وذكر[٢].

وبعد وفاة طرنطاي تحدث الأمير سنجر الشجاعي في أن يتولى النيابة عوضاً عنه، فظل في وظيفة النيابة أياماً قليلة من غير أن يُخلع عليه رسمياً، ولا كُتب له تقليد بالنيابة[٣]، وكان أن خذل السلطان الأشرف الشجاعي وفوض نيابة السلطنة إلى الأمير بدر الدين بيدرا المنصوري[٤].

- **دور سنجر الشجاعي في الفتوحات في عهد الأشرف خليل.**

- **فتح عكا:-**

حينما هاجم الفرنج ساحل عكا ٦٨٩هـ/١٢٩٠م وقتلوا به جماعة من التجار المسلمين، كان المنصور قد تهيأ للخروج إليهم لحربهم، وقد كان. ثم عاجلته المنية[٥]. فلما تولى الأشرف السلطنة بعد أبيه فكان أن راسله أهل عكا يعتذرون له

---

(١) الخزنداري: تاريخ مجموع النوادر، ص ٢٨٢.

(٢) السيد الباز العريني: المماليك. دار النهضة العربية – بيروت ١٩٦٧م. ص ٢٤١.

(٣) المقريزي: السلوك ج١، ق ٣ ، ص ٧٥٩.

(٤) النويري: نهاية الأرب، ج٣١، ص ١٨٣.

(٥) اسطفان البديهي الأنطاكي الماروي: تاريخ الأزمنة. نشرة بطرس فهد – لبنان– جونيه، ١٩٧٦م، ص ٢٦٦.

عما كان منهم، إلا أنه لم يقبل عذرهم[١]، وهذا يعني إعلان الحرب عليهم لأنهم غدروا بالمسلمين[٢]. وصار الأشرف إلى عكا بعساكره لفتحها ٦٩٠هـ/١٢٩١[٣]م، فوجدها قد تحصنت، فصمم على حصارها، وحينما هم بالهجوم على الفرنج ولوا هاربين في البحر[٤]، وأحضروا المراكب يقاتلون فيها، فهبت عليهم ريح قوية كسرت آلاتهم وتحطمت،[٥] واشتد المسلمين على حصن عكا وضايقوا من به وضيقوا عليهم وهاجموها وقتلوا من الفرنج الكثير، ومنّ الله عليهم بالفتح وغنموا من عكا[٦]. وأوعز الملك الأشرف إلى الشجاعي تخريبها وهدم أسوارها وكنائسها[٧]، فشرع الشجاعي في تخريب عكا،ووجد بها كنائس قديمة، وفيها من البناء ما لا يقدر على مثله. كما وجد بها رخاماً كثيراً، فحمله إلى مصر مع أبواب الكنائس فيما حمل[٨].

---

(١) النويري.محمد بن قاسم بن محمد : الإلمام بالإعلام فيما جرت به الأحكام والأمور المقضية في وقعة الإسكندرية،تحقيق : عزيز سوريال- حيدر أباد – الدكن – الهند ، ١٣٩٣ هـ/ ١٩٧٣م ،ج٤، ص ٩٣.

(٢) فايد حماد: الجهاد الإسلامي، ص ١٩٨.

(٣) القلقشندي.على بن أحمد: مآثر الأنافة في معالم الخلافة. تحقيق: عبد الستار أحمد فراج، بيروت، لبنان، عالم الكتب، د. ت ،ج، ٢، ص ١٢٢.

(٤) بامخرمه.أبوحمد الطيب بن عبد الله :قلادة النحر في وفيات أعيان الدهر، تحقيق: محمد يسلم عبد النور، اليمن–صنعاء، وزارة الثقافة السياحة، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م، مج ٣، ص ٣١٦.

(٥) ابن حبيب: تذكرة النبيه، ج١، ص ١٣٧.

(٦) أبو الفدا، عماد الدين إسماعيل:المختصر في أخبار البشر،القاهرة، المطبعة الحسينيه، د.ت، ج٤، ص ٢٥.

(٧) المقريزي: المواعظ مج ٤، ص ٥٢٨.

(٨) العيني: عقد الجمان، ج٣، ص ٦٢، ص ٦٣.

- **فتح صيدا:**

توجه سنجر الشجاعي بناء على أوامر السلطان الأشرف إلى صيدا لفتحها[١]، فوصلها سنجر وحاصرها وخرب قلعتها[٢]. ثم انتقل مع الأمراء إلى الجزيرة المجاورة لصيدا وأحرقوها بما فيها وهرب أهلها، فتبعهم المسلمون بالقتل والأسر[٣].

- **فتح بيروت:**

صار الشجاعي إلى بيروت لفتحها[٤]، وكان فتحها مخادعة، لأنه لما أتى إليها كان أهلها في هدنة مع المسلمين، فالتقوا بالشجاعي فرحين، وأنزلوه في القلعة[٥]، وأمرهم الشجاعي أن ينقلوا أولادهم، وحريمهم وأثقالهم إلى القلعة، ففعلوا ظناً منهم أن هذا من الشجاعي شفقة عليهم[٦]، فلما صاروا بالقلعة قبض على

---

(١) ابن سباط. حمزة بن أحمد بن عمر: تاريخ ابن سباط صدق الأخبار. تحقيق عمر عبد السلام تدمري- طرابلس – جروس برس، ط١، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م، ج١، ص ٤٩٧/ ابن الوردي، زين الدين عمر: تاريخ الوردي- المطبعة الحيدرية – النجف، ط٢، ١٣٨٩هـ/ ١٩٦٩م،ج٢، ص ٣٣٧.

(٢) صالح بن يحيى: تاريخ بيروت وأخبار البحتريين من بني الغرب، نشره: لويس شيخو اليسوعي، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، ١٩٢٧م،ص٢٧، ص٢٩.

(٣) الذهبي: تاريخ الإسلام، ج١٥، ص ٤٣٦.

(٤) ابن خلدون: العبر، ج٥، ص ٤٠٤.

(٥) الجزري: حوادث الزمان: ج١، ص ٤٥/ مفضل بن أبي الفضائل، تاريخ سلاطين المماليك ج٢، ص ٥٤٨/ زردشتين:مساهمات تاريخ سلاطين المماليك من عام ٦٩٠- ٧٤١هـ طبقاً للمخطوطات العربية – ليدن – بريل ، ١٩١٩م.ص١

(٦) ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، مج٨، ص ١٢١.

الرجال وقيدهم وألقاهم في الخندق وملك البلد[1]، ولما استولى عليها هدمها[2]. وكان الذي دفع الشجاعي إلى إعمال الحيلة والمخادعة معهم رغم الهدنة المقررة بينهما ما كان منهم حينما هجموا على بعض الأمراء الساكنين بالقرب منهم حتى قتلوا أكثرهم، ولذلك فعل الشجاعي معهم ما فعل انتقاماً منهم لما فعلوه بالأمراء المجاورين[3].

- **فتح جبيل:**

توجه الشجاعي إلى جبيل، وكانت تحت يده، فأخرج منها الفرنج وهدمها وهدم قلعتها[4].

- **فتح عثليث:**

لما رأى أهل حصن عثليث انتصار الشجاعي في فتح صيدا وبيروت وجبيل، وأن منطقة الساحل أصبحت خالية من الفرنج، فإنهم قاموا بإحراق حواصلهم وولوا هاربين، فدخله الشجاعي بعساكره وهدموه[5].

---

(١) صالح بن يحيى: تاريخ بيروت، ص ٢٨/ النويري :نهاية الأرب، ج ٣١، ص ٢١٢.

(٢) اليافعي اليمني، عبد الله بن أسعد: مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان، القاهرة، دار الكتاب الإسلامي، ط٢، ١٤١٣ه/ ١٩٩٣، ج٤، ص ٢٠٩.

(٣) اسطفان الدويهي: تاريخ الأزمنة، ص ٢٩٨، ص ٢٦٩/حيدر أحمد الشهابي: الغرر الحسان في تواريخ حوادث الأزمان- القاهرة- مطبعة السلام، ١٩٠٠م، ج١، ص ٤٦٧، ص ٤٦٨.

(٤) صالح بن يحيى: تاريخ بيروت، ص ٢٨/ اسطفان الدويهي : تاريخ الأزمنة، ص ٢٦٩.

(٥) اليافعي اليمني: مرآة الجنان ج ٤، ص ٢٠٩/ الذهبي. الحافظ: العبر في خبر من غبر. تحقيق: أبو هاجر محمد السعيد، بيروت – لبنان، دار الكتب العلمية، ١٩٨٥، ج٣، ص ٣٧١.

- فتح أنطرسوس:

توجه الشجاعي إلى أنطرسوس وحارب أهلها، فقاموا بتسليمها إليه بعد أن طلبوا منه الأمان، ففعل(١).

- جبل الجرد والكسروان:

لما وصلها الشجاعي بعث في طلب قادتها، فلما حضروا أخذ سلاحهم واتفق معهم أن يتبعوه ويدخلوا في طاعته، وأخذ منهم رهائن ضماناً لتبعيتهم(٢).

- بعلبك:

قدم الشجاعي إليها وصعد قلعتها وأمر بكسر صنمين من الرخام كانا قد وجدا في بعض الحفائر في غاية الإتقان وبراعة الصنعة، فكان إذا حضر أحد من الأكابر أحضروا الصنمين للمشاهدة، ولذلك أمر الشجاعي بتكسيرها. مما يدل على حسن تدين الشجاعي حتى وإن كان ظالماً(٣). وهكذا تم فتح عكا وصيدا وبيروت وعثليث والساحل جميعه، وكل هذا في سنة ٦٩٠هـ/ ١٢٩١م(٤).

ولقاء تلك الانتصارات التي حققها الشجاعي، أنعم عليه الملك الأشرف بأن ولاه على نيابة دمشق ٦٩٠هـ/ ١٢٩١ م(٥) عوضاً عن الأمير حسام الدين

---

(١) الجندي: حوادث الزمان، ج١، ص ٥٥/ أحمد الشهابي: الغرر الحسان، ج١، ص ٤٦٨.

(٢) الذهبي: تاريخ الإسلام، مج ١٥، ص ٤٣٧.

(٣) الذهبي: تاريخ الإسلام، مج، ١٥، ص ٤٣٧.

(٤) الصفدي.أبو محمد عبد الله: نزهة الممالك والمملوك في مختصر سيرة من ولى مصر من الملوك، يؤرخ من عصر الفراعنة والأنبياء حتى ٧١٧هـ، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، بيروت- صيدا – المكتبة العصرية، ط١، ص ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م، ص ١٦٧.

(٥) ابن سباط: تاريخ اب سباط، ص ٤٩٨/ أبو المحاسن:الدليل الشافي، ج١، ص ٣٢٥/ ابن صصري، محمد بن محمد: الدرر المضيئة في الدولة الظاهريه.تحقيق:وليم.م.برنير – لندن – كابريدج، ١٩٦٣م.ص١٨١.

لاجين*[1]، وولى بدلاً منه في الوزارة بالقاهرة ابن السلعوس* [2]، فوصل الشجاعي إلى دمشق وقد أوقدت له الشموع، وصلى في مقصورة المسجد ليسمع الخطبة وليكون قريباً من الإمام، ثم نودي بجلوسه نائب للسلطنة[3]، وزاد السلطان في إقطاعه وراتبه[4]، وجعل له في كل يوم ثلاثمائة درهم على دار الطعم*[5]، وأعطاه

---

* حسام الدين لاجين: حسام الدين لاجين بن عبد الله المنصوري. أصله من مماليك المنصور قلاوون، ولاه نيابة دمشق، فلما تولى الملك الأشرف ولاية مصر بعد وفاة أبيه المنصور قلاوون قام بعزل لاجين وقبض عليه ثم أطلق سراحه، وقد تنقل به الحال إلى أن ملك الديار المصرية، ٦٩٦هـ/ ١٢٩٦ م بعد خلع الملك العادل كتبغا، وتوفى لاجين. ٦٩٨هـ/ ١٢٩٨م "أبو المحاسن بن تغري بردي: مورد اللطافة في من ولي السلطنة والخلافة، تحقيق: نبيل أحمد عبد العزيز – القاهرة، دار الكتب المصرية، ١٩٩٧م، ص ٥١".

(١) الصقاعي: تالي وفيات الأعيان،ص٩٠/ أبوالمحاسن: النجوم الزاهرة، ج٨، ص ٩، ابن الوردي: تاريخ ابن الوردي، ج٢، ص ٣٣٧.

* السلعوس: شمس الدين محمد الدمشقي التاجر الكاتب. ولي حسبة دمشق فأحسن السيرة، ثم ولي الوزارة، وكان يكثر الصيام والذكر، فلما تولى الوزارة تكبر على الناس. توفى ٦٩٣هـ/ ١٢٩٣م"الحنبلي. العماد أبو الفلاح عبد الحي: شذرات الذهب في أخبار من ذهب. القاهرة. مكتبة القدس، ١٣٥١م، ج٥، ص ٤٢٤" .

(٢) الدمشقي. شمس الدين محمد بن علي بن طولون: أعلام الورى بمن ولي نائباً من الأتراك بدمشق الشام الكبرى.تحقيق: عبد العظيم حامد خطاب. مكتبة الأداب– جامعة عين شمس، ١٩٧٣، ص ٩.

(٣) البرزالي.القاسم بن محمد الدمشقي: المقتفى على كتاب الروضتين المعروف بتاريخ البرزالي. تحقيق:عمر عبد السلام تدمري، بيروت صيدا – المكتبة العصرية، ط١، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م، ج١، ق٢، ص ٢٤٩.

(٤) المقريزي السلوك، ج١، ق ٣، ص ٧٦٧.

* دار الطعم: موقعها بدمشق،كانت بمثابة الوكالة بالديار المصرية، ولها مشد أي مسئول عنها يوليه نائب دمشق. "المقريزي: السلوك ج١، ق ٣ حاشية، ص ٧٦٨".

(٥) الجزري: حوادث الزمان، ج١، ص ٥٢.

الحرية أن يطلق من الخزانة ما أراد من أموال دونما اعتراض عليه[١]. وهذا ما يثير العجب والكثير من التساؤل لأن الشجاعي هو نفسه الذي صادره المنصور قلاوون من قبل لظلمه للناس ومصادرتهم وأخذ أموالهم، أفبعد هذا يأتي الأشرف بن المنصور قلاوون ويطلق يده في خزائن دمشق دونما رقيب؟ أم غاب عن الأشرف ما كان في عهد أبيه؟ أم أن الشجاعي كان من القرب بالأشرف خليل، منفذاً لأوامره ما جعله يعطيه تفويضاً بحرية التصرف في خزائن دمشق؟ أو أن ذلك كان إثابة للشجاعي على ما بذله من جهد في الفتوحات؟

وجدير بالذكر أنه في أثناء نيابة الشجاعي لدمشق فقد حان وقت الذكرى السنوية الأولى للملك المنصور قلاوون، فكان أن قام ابنه الأشرف في مصر بدعوة القضاة والفقهاء والأعيان والقراء بقبة المنصورية تربة والده، وأحيا ذكراه وتصدق بصدقات كثيرة[٢]. فأمر الأشرف سنجر الشجاعي أن يحيي هو الأخر ذكرى المنصور قلاوون عنده في دمشق، وتمت تلاوة القرآن وتكلم الوعاظ[٣]، ونصب مخيم كبير ومد فيه مائدة عظيمة حافلة بألوان الطعام والشراب، وظل الناس حتى الصباح[٤].

ومن الطريف في نيابة الشجاعي لدمشق أنه في ٦٩٠هـ/ ١٢٩١م أمر بأن ينادى في النساء تحذيراً ألا يرتدين العمائم، وهدد كل امرأة تلبس تلك العمامة[٥]. فامتنع النساء عن لبسها على كراهة وآلم[٦]، حتى ذكر في ذلك شعراً جاء فيه:

---

(١) ابن أيبك الدواداري: كنز الدرر، ج٨، ص ٣١١.

(٢) ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، مج٨، ص ١٢٩.

(٣) النويري: نهاية الأرب، ج٣١، ص ٢٢١.

(٤) الذهبي: تاريخ الإسلام، مج١٥، ص ٤٣٩.

(٥) اسطفان الدويهي: تاريخ الأزمنة، ص ٢٧٢/ أحمد الشهابي: الغرر الحسان، ج١، ص ٤٦٨.

(٦) البرزالي: المقتفى، ج١، ص ٢٥٣.

هـــــذا الأمير غيور لأنه قـــــــد أزالا

عماماً وخفافـــــــاً علـــى النساء ثقالاً

وغار لما تبرجـــــن والتزمن الحجـــالا

والآن عدن نســـــاء وكـــن قبل رجالاً [1]

وربما عمد سنجر الشجاعي إلى ذلك عملاً بنهى النبي "صـــلى الله عليـــه وسلم" عن تشبه النساء بالرجال، فحفظ عليهن الوقوع في الإثم والخطأ ومـــا نُهـــي عنه.و ربما لئلا يتمادين في تصرفاتهن من وراء تشبهن بالرجال، كأن يعتدن السهر أو غير ذلك مما يأتيه الرجال من أفعال.

فتح الروم:

في ٦٩١هـ / ١٢٩١م فتح السلطان الأشرف قلعة الـــروم* [2]. إذ توجـــه إليها وحاصرها وعمل على تنقيبها[3]، إلى أن مكنه الله من فتحها بعد حصـــار دام ثلاثة وثلاثين يوماً وكان للأمير علم الدين سنجر الشجاعي في فتحها نصيب، إذ أنه تحايل في عمل سلسلة بالقرب من القلعة[4]، وأوثق طرفها بالأرض، فتمسك الجنـــد بها وطلعوا إلى القلعة، وتم فتحها عنوة، وقتل من كان بها من المقاتلـــه، وســـبيت

---

(١) الصفدي: الوافي، ج١٥، ص ٤٧٨.

* قلعة الروم: على جانب الفرات في غاية الحصانة "ابن سباط: تاريخ ابن سباط، ج١، ص ٤٩٩"، كانت هذه القلعة كرسي مملكة الأرمن وبها خليفتهم، وقد حصنها الأرمن بالأسوار "العيني: عقد الجمان، ج٣، ص ١٢١".

(٢) الصفدي : نزهة المالك، ص ١٦٨/ ابن خلدون:العبر، ج٥، ص ٤٠٥.

(٣) بامخرمه: قلادة النحر، ص ٣١٦٩.

(٤) ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، مج ٨، ص ١٣٦/ المقريزي : السلوك، ج١، ق٣، ص ٣٧٨.

النساء والأطفال[١]. وقيل في فضل الشجاعي في هذا اليوم أنه قتل ثلاث رؤوس من الخيل، كما جرح عدد كبير من مماليكه[٢]. كذلك توجه الشجاعي إلى حصن "الزاكات" – معقل الأرمن على الفرات – وأسر منها ما يقارب الألف[٣]. وبعد تمام فتح القلعة أمر السلطان سنجر الشجاعي بضرورة تحصينها وإصلاح ما خرب منها[٤]، فجرد الشجاعي معه جماعة من العسكر لذلك وقام بتعميرها وتحصينها[٥].

ومما يذكر أنه بعد فتح قلعة الروم كتب الشجاعي إلى قاضي القضاة شهاب الدين الحويي كتاباً يُعلمه فيه بالفتح والنصر، وهو من إنشاء القاضي شرف الدين القدسي جاء فيه بعد البسملة "المملوك يستفتح من حمد الله على ما فتح من آلائه، وفتح على أوليائه، ووهب من الإعداء على أعدائه.. ما يستديم الإنجاد بحوله، ويستزيد به الإمداد من فضله وطوله، ويوالي من الصلاة على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، ما يستدر به أخلاق الفتوح[٦].. وينهي أنه أصدرها والنصر قد خفقت بنوده، وصدقت وعوده، وسار بمختلفات البشائر في كل قطر يريده، والأعلام الشريفة السلطانية قد امتطت من قلعة الروم صهوة لم تذل لراكب[٧].... وكانت هذه القلعة للثغور الإسلامية بمنزلة الشجى في الخلق والقلعة في الصدر والخسوف الطارئ على طلعة البدر.... وقد مسكن أهلها إلى مخادعة الجار،

---

(١) النويري: نهاية الأرب، ج٣١، ص ٢٢٦، ص ٢٢٧.

(٢) العيني: عقد الجمان: ج٣، ص ١١٣.

(٣) الذهبي: تاريخ الإسلام، مج ١٥، ص ٦٨١.

(٤) أبو المحاسن: المنهل الصافي، ج٥، ص ٢٧٤/ يوسف الدبس: تاريخ سورية- بيروت – المطبعة العمومية الكاثوليكية، ١٨٩٣م.مج ٦، ص ٣٠٩.

(٥) أبو الفدا: المختصر، ج٤، ص ٢٧/ ابن حبيب: تذكرة النبيه، ج١، ص ١٤٩.

(٦) الجزري: حوادث الزمان، ج١، ص ١٠٥.

(٧) ابن أيبك الدواداري: كنز الدرر، ج٨، ص ٣٢٨.

وموادعة التتار، ومماألأتهم على الإسلام بالنفس والمال[1]... وحين أمر مولانا السلطان خلد الله سلطانه الجيوش المنصورة بالنزول عليها ذللت مواطئ جيادها صهوات تلك الجبال، وأحاطت بها من كل جانب إحاطة الهلال بالهلال... وقد تقدمهم الرعب وأقدموا على قطع تلك المسالك والمهالك بالأموال والأنفس، ثقة بأنهم لا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة ولا يقطعون وادياً. فلم يكن بأسرع من أن طار إليهم الحمام في أجنحة السهام.. وكان الفتح المبارك .. فليأخذ القاضي من هذه البشرى التي أصبح الدين بها عالي المنار... وليشعها على رؤوس الأشهاد ويجعلها في صحف الفتوح السالفة بمنزلة المعنى في القرينة والمثل في الاستشهاد"[2]. هذا الخطاب الذي أرسله الشجاعي إلى القاضي يعطي فكرة عن أهمية فتح الروم بالنسبة للماليك، كما يُدل على شدة سعادة الشجاعي بهذا الفتح، ومع ما ذكر عنه من ظلمه وسوء سيرته في الرعية إلا أنه كان له دور عظيم في الفتوحات. بل ربما أن شدته وقسوته على الرعية جعلتهم لا يحدثون أنفسهم بأي تمرد أو عصيان، فكان أن سادت أيامه الهدوء ونعمت البلاد بالأمان الداخلي وهذا ما جعله يدلو بدلوه في الفتوحات ويحرز فيها الانتصارات.

ومما يذكر أنه بعد فتح الروم عنّ للسلطان الأشرف خليل أن يعزل علم الدين سنجر الشجاعي عن نيابة السلطنة بدمشق ٦٩١هـ/ ١٢٩١م[3]، إذ أن الشجاعي قد تأخر بقلعة الروم بعد فتحها، فكان أن عزله[4]. ثم حضر الشجاعي وهو معزول، فخرج إليه عزالدين الفاروثي خطيب دمشق وكان قد تم عزله أيضاً

---

(١) ابن الفرات. تاريخ ابن الفرات، مج٨، ص ١٣٩، ص ١٤٠/ ذدرشتين: تاريخ سلاطين المماليك، ص١٤.

(٢) النويري: نهاية الأرب، ج٣١، ص ٢٣٦، ص ٢٣٨.

(٣) ابن خلدون : العبر ج،٥، ص ٤٠٧/ يوسف الدبس: تاريخ سورية، مج٦، ص ٣٠٩.

(٤) ابن حبيب: تذكرة النبيه، ج١، ص ١٥٤/ ابن الوردي: تاريخ ابن الوردي، ج٢، ص ٢٣٩.

عن الخطابة، فسأله الشجاعي عن أحواله فرد قائلاً "عزلنا من الخطابة، فقال الشجاعي" ونحن عن النيابة"[١].

- مقتل الأشرف ودور سنجر في معاقبة الجناه:

في ٦٩٣هـ/ ١٢٩٣ م قُتل الملك الأشرف خليل[٢]، على يد بدر الدين بيدرا نائب السلطنة[٣]. أما عن السبب الذي أدى إلى ذلك فيذكر أن السلطان الأشرف توجه إلى بر الجيزة للصيد[٤]، ومعه نائب السلطنة وابن السلعوس[٥]، فلما وصل السلطان إلى محل الصيد فارقه ابن السلعوس وتوجه إلى الإسكندرية لتحصيل الأموال وتجهيز الأقمشة للسلطان[٦]، فوجد نواب بيدرا بالإسكندرية قد استولوا على المتاجر، فكاتب السلطان وأعلمه بذلك، فغضب السلطان واستدعى الأمير بيدرا[٧]، وأغلظ له في القول وشتمه وتوعده، فتلطف بيدرا في الجواب حتى خرج من بين يدي السلطان، وجمع أعيان الأمراء ومنهم الأمير حسام الدين لاجين نائب دمشق

---

(١) الصفاعي: تالي وفيات الأعيان، ص٩٠، ص ٩١/ الجزري: حوادث الزمان، ج١، ص ١١٨.

(٢) الذهبي : العبر، ج٣، ص ٣٧٩/ ابن المغيزل . نور الدين على بن عبد الرحيم الكاتب: ذيل مفرج الكُروب في أخبار نبي أيوب. تحقيق:عمر عبد السلام تدمري- المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، ط١، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م، ص ١٤٩.

(٣) بامخرمه: قلادة النحر، مج٣، ص ٣١٧٠/ الحنبلي : شذرات الذهب، ج٥، ص ٤٢٢.

(٤) أبو الفدا : المختصر، ج٤، ص ٣٩/ أحمد الشهابي: الغرر الحسان، ج١، ص ٤٧٠.

(٥) البرزالي: المقتفى، ج١، ص ٣٤٦.

(٦) الخزانداري: تاريخ مجموع النوادر، ص ٣٣١/ الخزري: حوادث الزمان، ج١، ص ١٩١.

(٧) ابن إياس : بدائع الزهور، ج١، ص ٣٧٣ / ابن خلدون: العبر، ج٥، ص ٤٠٦.

والأمير شمس الدين قراسنقر[١]، واتفقوا على قتل الأشرف[٢]. وكان السلطان قد ركب في عدد قليل من مماليكه للصيد فانطلق بيدرا خلفه ومن معه من الأمراء حتى قرب بيدرا من السلطان فابتدره وضربه بالسيف فقتل[٣]. وقرر الأمراء الذين مع بيدرا أن تكون السلطنة له، وساروا قاصدين القاهرة[٤]، لكن كان قد بلغ الأمير زين الدين كتبغا ومن معه مقتل السلطان، فجدوا في طلب بيدرا[٥]، فلما التقى الجمعان تقدم كتبغا وحمل على بيدرا ورماه بسهم[٦]، فهرب بيدرا منه[٧]، لكن كتبغا أدركه وقطع يده وقتله[٨]، وتوجه كتبغا إلى القاهرة. وقد كان الملك الأشرف حينما خرج إلى الصيد أسند إلى علم الدين سنجر الشجاعي نيابة السلطنة، فلما بلغه قتل الأشرف أمر ألا يعدوا أحد من الجند والعسكر من بر الجيزة إلى بر مصر إلا بأمر منه، ولذلك حينما ظفر كتبغا وعسكره ببيدرا وتوجهوا قاصدين القاهرة لم يجدوا مراكب تنقلهم، فراسلوا الأمير سنجر الشجاعي حتى يأذن لهم بالعبور حتى يجتمعوا ويتفقوا على من يقيمون سلطاناً عوضاً عن الملك الأشرف، فلم يمكنهم من

---

(١) قراسنقر: الأمير شمس الدين قراسنقر، اشتراه المنصور فعرف عنده بحسن التأني في الأمور والتحيل لبلوغ الغرض،استنابه الملك المنصور في حلب وتتبعه طرنطاي وأخذ يُحسن للمنصور عزله فلم يُعزل حتى كان عهد الأشرف بن المنصور فعزله من حلب "الصفدي: أعيان العصر، ج٤، ص ٨٩".

(٢) ابن الوردي: تاريخ ابن الوردي، ج٢، ص ٣٤٠/ ابن سباط: تاريخ ابن سباط، ج١، ص ٥١.

(٣) يوسف الدبس: تاريخ سورية، مج٦، ص ٣١٠.

(٤) ابن دقماق: النفحة المسكية، ص ٩٢/ ابن حبيب : تذكرة النبيه، ج١، ص ١٦٨.

(٥) ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، مج٨، ص ١٧٠.

(٦) أبو الفضايل: تاريخ سلاطين المماليك، ج٢، ص ٥٧٢.

(٧) النويري: نهاية الأرب، ج٣١، ص ٢٦٦.

(٨) اسطفان الدويهي: تاريخ الأزمنة، ص ٢٧٤.

العبور[١]. وخطر لهم أن الشجاعي كان متفقاً مع بيدرا على قتل السلطان لأجل المصاهرة التي كانت بينهم[٢]، فاتفق رأيهم أن يسلموا رأس بيدرا لبعض الغلمان ليؤديه إلى الشجاعي حتى يعلمه أن هذا كان غريم السلطان وأنه قتل، فأخذ غلام من عندهم الرأس وأوصلها إلى الشجاعي، فلما رأى الرأس بكى وتوجع وتألم كثيراً حتى قال والله لقد كنت أعجب من عقل صاحب هذا الرأس، ولكن إذا أمر الله بإتمام قضائه وقدره سلب ذوي العقول عقولهم، والله ليوري هذه النار أثرها حتى لا يبقى لهما أثر"[٣]. ثم أمر الشجاعي بالسماح لكتبغا العبور بالمراكب[٤]. وكانوا أن اجتمع رأيهم على أن يتولى الناصر محمد بن الملك المنصور قلاوون السلطنة[٥].

وعلى ما يبدو أن كلاً من كتبغا وسنجر كان يطمح في الاستئثار بالسلطة لنفسه، ولما وجد كل منهما أنه أمام خصم قوي عنيد، اتفق الطرفان على مبايعة الناصر محمد[٦]، وبالفعل تولى السلطنة ٦٩٣هـ/١٢٩٣م[٧]، وله من العمر تسع

---

(١) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج٨، ص ١٩/ المقريزي: السلوك، ج١، ق٣، ص ٧٩٣.

(٢) الدواداري: كنز الدرر، ج٨، ص ٣٥٠.

(٣) العيني: عقد الجمان، ج٣، ص ٢٢٠، ص ٢٢١.

(٤) بيبرس المنصوري : مختار الأخبار، ص ٩٧.

(٥) الناصر محمد: هو التاسع من ملوك دولة الترك بالديار المصرية. ولد ٦٨٤هـ/ ١٢٨٥م، جلس على عرش السلطنة بالديار المصرية بعد مقتل أخيه الأشرف ٦٩٣هـ/ ١٢٩٣ م وعمره يومذاك تسع سنين "النويري: نهاية الأرب، ج٣١، ص ٢٦٧"، دانت له ملوك الأرض وأغرق الناس في عطاياه إلى أن هلك عنه سلطانه .. "الصفدي: أعيان العصر، ج٥، ص ٧٤، ص ٧٥".

(٦) سعيد عبد الفتاح عاشور: العصر المماليكي في مصر والشام. القاهرة. دار النهضة العربية، ط٢، ١٩٧٦م، ص١٠٨.

(٧) الصفدي: أعيان العصر، ج٥، ص٧٦.

سنين[١]. واستقر كتبغا نائب في السلطنة[٢]، واستقر سنجر الشجاعي وزيراً لـه[٣]، فتحدث فيها ونفذ أمره[٤]، وحلف باقي الأمراء للناصر محمد وكان ذلك كله بتدبير من الشجاعي[٥]. وقبض كتبغا والشجاعي على زمام الأمور في البلاد، وأعملا السيف بإسراف في رقاب كل من وصلت إليهم أيديهما مما ائتمروا بالسلطان الأشرف[٦]، فلم يكن الناصر يملك معهم شيئاً من أمره[٧]، كان أول عمل قاما به هو التحقيق في مقتل السلطان خليل. وقد قبض بالفعل على كثير من المماليك ممن اتهموا بالاشتراك في ارتكاب هذه الجريمة[٨]. وحينما تم القبض عليهم سيقوا إلى القلعة[٩]، فلما أقروا بما فعلوا واعترفوا بأنهم قتلوا الأشرف[١٠]، أمر بقطع أيديهم وتسميرهم[١١]، وصلبوا على الجمال وطيف بهم وأيديهم معلقة في أعناقهم[١٢]، جزاءً وفاقاً على ما فعلوا .

---

(١) أبو الفضايل: تاريخ سلاطين المماليك ج٢، ص ٥٧٥/ اليافعي اليمني: مرآة الجنان، ج٤، ص ٢٢٢.

(٢) أبو المحاسن : مورد اللطافة. ص ٤٥.

(٣) الحنبلي: شذرات الذهب، ج٥، ص ٤٢٢.

(٤) العيني:عقد الجمان ج٣، ص ٢٣٤.

(٥) المقريزي: السلوك، ج١، ق٣، ص ٧٩٥/ النويري: نهاية الأرب، ج٣١، ص٢٦٨.

(٦) وليم موير: تاريخ دولة المماليك في مصر: ترجمة: محمود عابدين – سليم حسن، القاهرة. مكتبة مدبولي. ط١، ١٤١٥، ١٤١٥/ ١٩٩٥م.ص٧١

(٧) ابن خلدون: العبر، ج٥، ص ٤٠٦.

(٨) محمد عبد العزيز مرزوق: الناصر محمد بن قلاوون – القاهرة- وزارة الثقافة والإرشاد القومي، ١٩٦٤م، ص١٠٨.

(٩) النويري : الإلمام، ج٤، ص ١٠٤/ يوسف الدبس: تاريخ سورية، مج٦، ص ٣١٠.

(١٠) العيني: عقد الجمان، ج٣، ص ٢٢٣.

(١١) أبو المحاسن : المنهل الصافي، ج١٠، ص ٢٦٩.

(١٢) أبو الفدا: المختصر، ج٤، ص ٣٠.

كذلك تم التنكيل بابن السلعوس وقتله ٦٩٣هـ/ ١٢٩٣ م[١]. فقد كان شمس الدين بن السلعوس في الإسكندرية حينما بلغه خبر وفاة السلطان الأشرف[٢]، فسافر مسرعاً إلى القاهرة ودخل داره، وأخذ يمارس مهام عمله في الوزارة لمدة خمسة أيام من حين رجوعه من الإسكندرية[٣]. وقد خرجت في حقه رسالة من بيت السلطان الأشرف إلى الأمير كتبغا نائب السلطنة مضمونها الشفاعة في أمره وأنه لا يُؤذى نظراً لمحبة السلطان الأشرف له[٤]. فلما علم سنجر الشجاعي بذلك غضب واجتمع بكتبغا وغيره من كبار الأمراء وذكر لهم أن ابن السلعوس هو من تسبب في هلاك السلطان الأشرف حينما أوقع بينه وبين نائبه بيدرا، وأقسم الشجاعي ألا يترك ابن السلعوس سالماً بعد هذا، وهنا أمر كتبغا باستدعاء ابن السلعوس إلى القلعة[٥]، فلما حضر قبض عليه كتبغا وسلمه للشجاعي فقبض عليه[٦]، وسلمه إلى الأمير جهاد الدين قراقوش شاد الصحبة، ليطالبه بالأموال، فضربه ضرباً شديداً، فقد ذكر أنه أول ما تسلمه ضربه ألف وماية مقرعة، فأنكر عليه علم الدين سنجر الشجاعي ذلك وأخذه منه[٧]، وسلمه إلى الأمير بدر الدين لولوا المسعودي شاد الدواوين بالديار المصرية وقال له "استخرج منه الأموال" فعاقبه بأشد العذاب واستخرج منه الأموال حتى أنه أقر أنه له تحت يد شخص أو جماعة بالشام تسعة آلاف دينار، فكتبت التذاكر من مصر إلى الشام، وحملت الأموال التي كانت ملكه

(١) ابن المغيزل: ذيل مفرج الكروب، ص ١٥٠.
(٢) الجزري: حوادث الزمان، ج١، ص ١٩٣.
(٣) البرزالي: المقتفى، ج١، ص ٣٤٧.
(٤) النويري : نهاية الأرب ج٣١، ص ٢٧٢.
(٥) ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، مج٨، ص ١٧٦.
(٦) يوسف الدبس: تاريخ سورية، مج ٦، ص ٣١١.
(٧) المقريزي : السلوك ج،١ ق ٣، ص ٧٩٧/ ذدرشتين: تاريخ سلاطين المماليك، ص ٢٨٠.

إلى بيت المال[١]، فبلغ الذي حمل من جهته إلى بيت المال خمسمائة ألف درهم[٢]. ثم لم يزل تحت الامتحان[٣] والعقاب كل ليلة حتى مات تحت الضرب، فذهب ماله وزال سلطانه[٤]. وربما شده البطش التي مارسها سنجر الشجاعي ضد ابن السلعوس راجعة إلى عداء بينهما مرده أن سنجر الشجاعي كان يتحدث في الوزارة حينما ملك السلطان الأشرف من غير تقليد رسمي[٥]، فلما وصل ابن السلعوس إلى القاهرة بناء على دعوة الملك الأشرف له، أسند إليه الوزارة بالديار المصرية[٦].

تنبه ياوزير الأرض واعلم بأنك قد وطيت على الأفاعي

وكن بالله معتصماً فإني أخاف عليك من نهش الشجاعي

وكان هذا ما جرى على ابن السلعوس بالفعل، حيث صادره الشجاعي ونهشه. وقد طلب الشجاعي صاحب الشعر هذا قائلاً له "أنت نصحته ما انتصح" وأثابه على شعره[٧].

- نهاية سنجر الشجاعي:

ومثلما حفلت ٦٩٣هـ/ ١٢٩٣ م بالعديد من الأحداث التي كان أبرزها مقتل السلطان الأشرف وابن السلعوس وتولية الناصر محمد سلطنة المماليك، كذلك ضمت هذه السنة بين جنباتها نهاية سنجر الشجاعي، فقد قُضي بها نحبه وتم قتله

(١) ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، مج٨، ص ١٧٦.

(٢) العيني: عقد الجمان، ج٣، ص ٢٢٨/ بيبرس الدودار: زبدة الفكرة، ج٩، ص ٣١٧.

(٣) ابن خلدون: العبر، ج٥، ص ٤٠٧.

(٤) ابن إياس: بدائع الزهور، ج١، ص ٣٧٩/ اليافعي اليمني: مرآة الجنان، ج٤، ص ٢٢٢.

(٥) النويري: نهاية الأرب، ج٣١، ص ١٨٨/ ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، مج٨، ص ١٠٨.

(٦) المقريزي: السلوك، ج١، ق٣، ص ٧٦١.

(٧) ابن صصري: الدرة المضيئة، ص ١٨١، ص ١٨٢/ السيوطي: حسن المحاضرة، ج٢، ص ١٧٣، ص ١٧٤.

بعدما ظن أن الأمر سيستقر له في السلطنة، ولكن تأتي الرياح بما لا تشتهي السفن.

فقد دارت أحداث عصر الناصر محمد في سلطنته الأولى حول اغتصاب العرش، وكان أشد القائمين بذلك علم الدين سنجر الشجاعي الوزير، وزين الدين كتبغا النائب، فكان لكل منهما آمال ومطامع في اعتلاء عرش السلطنة، واتخذ كل منهما من حداثة سن الناصر فرصة سانحة لتحقيق أغراضه، واشتد التنافس بين كتبغا وسنجر، وانضم إلى كل منهما كثير من الأتباع[١]، وحدثت الفتنة بينهما والتي أثارها الشجاعي ودبرها لكي يخلو له الجو من كتبغا فيستبد هو بالسلطان لصغر سنه[٢]، إذ أنه بعد أن عمل سنجر الشجاعي وزيراً في دولة الناصر، لم يعد يمضي عليه شهر في وزارته حتى حدثته نفسه بما فوق الوزارة[٣]، حيث طلب الأمر لنفسه[٤]، ومال إلى المظالم والمصادرات واغتصاب الأموال بالعسف والعنف، وارتفعت أصوات الناس ولهجت ألسنتهم بالدعاء عليه[٥]. كما لجأ إلى بث الفتن بين الأمراء، واتهم كتبغا بإهمال شأن الناصر محمد ، واستطاع أن يحدث انقساماً في صفوف المماليك[٦]،وحدثت الوحشة بينه وبين كتبغا[٧]، وصار العسكر فريقين، فريق مع كتبغا ومعظمهم من الأمراء والمقدمين الترك، والفريق الأخر مع الشجاعي وهم من فرقة المماليك البرجية[٨]، ومن هنا شرع الشجاعي في إعمال

---

(١) على إبراهيم حسن: تاريخ المماليك البحرية، ص ٦٦.

(٢) محمود رزق سليم: عصر سلاطين المماليك، ج٢، ص ٣٣٥.

(٣) أبو المحاسن : المنهل الصافي، ج٦، ص ٨١/ السيوطي: حسن المحاضرة، ج٢، ص ١٧٤.

(٤) ابن حبيب: تذكرة النبيه، ج١، ص ١٧٢.

(٥) بيبرس المنصوري: مختار الأخبار، ص ٩٨.

(٦) حكيم أمين : قيام دولة المماليك.ص١٤.

(٧) ابن سباط: تاريخ ابن سباط، ج١، ص ٥٠٣

(٨) أبو الفداء المختصر، ج٤، ص ٣١.

الحيلة والتدبير ضد كتبغا. وكان الأمير سيف الدين قنفر التتري لما حضر من بلاد التتار وأقام بمصر، فقد أقطعه السلطان الأشرف إقطاعاً، وكان قد رزق من الأولاد اثنى عشر ذكر، ستة منهم في خدمة الملك الأشرف، والباقي في خدمة سنجر الشجاعي، وكان له منزلة عظيمة عند سنجر وشفاعة لا ترد. وكان أولاده يأتوه بأخبار الدولة، فلما شرع سنجر الشجاعي في التدبير بالقبض على كتبغا والأمراء الذين معه، فقد استمال الأمراء البرجية والمماليك السلطانية[١]، وأنفق فيهم الأموال في الباطن[٢]، واتفق معهم على أن كل من آتاه برأس أمير من أمراء كتبغا كان إقطاعه له[٣]. واتفق سنجر مع الأمير علم الدين سنجر البندقداري على أنه عند طلوع كتبغا القلعة يقوم بالقبض عليه . فلما علم قنقر التتري بما في باطن الشجاعي أعلم به كتبغا الذي أخبر أمرائه كي يحترزوا. وحينما اجتمع الأمراء ينتظرون فتح باب القلعة ليركبوا في خدمة كتبغا خرجت رسالة بطلب جماعة من الأمراء فدخلوا في الخدمة السلطانية حتى جاء الخبر إلى كتبغا بأن الأمراء الذين استدعوا اعتقلوا، فتوقف باقي الأمراء الذين كانوا مع كتبغا عن طلوع القلعة[٤]. ثم حدث أن ذهب علم الدين البندقداري إلى كتبغا حسب اتفاقه مع سنجر الشجاعي، فسأل البندقداري كتبغا عن مكان لاجين وذلك للظفر به لأنه متهم مع من اتهم بقتل الملك الأشرف، فأجابه كتبغا بأنه لا يعرف مكانه[٥]، وكان يقال أن الأمير كتبغا قد تستر على لاجين بسبب ما بينهما من صلات المحبة والصداقة[٦]، فجرد البندقداري سيفه ليضرب به

---

(١) الدواداري: كنز الدرر، ج٨، ص ٣٥٣.

(٢) الذهبي : تاريخ الإسلام، مج١٥، ص ٦٨٨.

(٣) المقريزي: السلوك ج١، ق٣، ص ٧٩٨.

(٤) النويري: نهاية الأرب، ج٣١، ص ٢٧٤.

(٥) أبو المحاسن: المنهل الصافي، ج١٠، ص ٢٦٩.

(٦) محمد عبد العزيز مرزوق: الناصر محمد، ص ١٠٨.

كتبغا، فلما رأى مملوك كتبغا ذلك جرد سيفه وضربه وتم ذبحه[١]. ولما بلغ الشجاعي مقتل البندقداري واجتماع الأمراء مع كتبغا خرج إلى باب القلعة واستدعى مجموعة من الأمراء والأجناد. وقد أعد الذهب في صرر ووعد الأمراء بالعطايا إذا حضروا[٢]، فلما رأى كتبغا ذلك راسل الملك الناصر محمد في طلب الشجاعي قائلاً له: "أنه قد انفرد بالرأى في القبض على الأمراء، فأحضره ليحاقق فيما نقل عنه"[٣]، فبعث السلطان يطلب الشجاعي إلا أنه امتنع عن الحضور، وعندئذ قام كتبغا بحصار القلعة، وأمر بقطع الماء عنها، فلما كان اليوم الثاني نازل بعض الأمراء البرجية كتبغا ومن معه من العساكر وهزموهم، وصار الشجاعي ينزل كل يوم إلى الأمير كتبغا ومن معه يناوشهم القتال ومعه طائفة من الأمراء، ثم بدأ الأمراء المنضمين إلى الشجاعي يتخلون عنه[٤]، لأنهم فطنوا إلى أن الشجاعي أعلمهم خطأ وغرر بهم في أن كتبغا ومن معه يريدون نقل السلطنة من البيت القلاووني، وأن غرضه هو حفظ الملك في بيت قلاوون، فلما تبين لهم فساد نيته وأنه يطمح إلى الاستئثار بالأمر دون كتبغا تركوه وتسللوا من القلعة عشرة عشرة، واستمر الحصار سبعة أيام، ولما رأت والدة الناصر ما هم فيه من شدة الحصار خرجت إلى الأمراء قائلة: "أيش غرضكم حتى نفعله؟ قالوا: ما لنا غرض إلا القبض على الشجاعي"[٥]، وظل الشجاعي بداره في القلعة محصوراً، فلما شاهده أصحابه في هذه الحالة تفرقوا عنه ونزلوا إلى كتبغا، وهنا طلب الشجاعي الأمان،

---

(١) أبو المحاسن: المنهل الصافي، ج١٠، ص ٢٦٩.

(٢) الجزري: حوادث الزمان، ج١، ص ١٩٧.

(٣) العيني : عقد الجمان، ج٣، ص ٢٣٦.

(٤) ابن خلدون: العبر ج٥ ، ص ٤٠٧.

(٥) ابن إياس: بدائع الزهور، ج١، ص ٣٨٢.

فلم يوافق الأمراء[١]، ثم طلع إليه بعض الأمراء وطلبوه عند والدة السلطان الناصر كأنهم يشيرونه في ما يعمل[٢]، فمضى معهم ووثب عليه أحد المماليك[٣]، وجرد سيفه وضربه به فقطع يده، ثم ضربه ثانية ففصل رأسه عن جسده، ثم أخذت رأسه ورفعت على سور القلعة[٤]. وقد قيل أنه لما قبض على الشجاعي وأرسلوه إلى مكان يقيد فيه، توجه به الأمير بهاء الدين الأقوش، فلما كان في الطريق قتله وقطع رأسه ويده ونزل إلى سوق الخيل والبرجية والمماليك السلطانية[٥]، وقالوا لأقوش "ما هذا معك؟ فقال: خبز سخن أرسله السلطان للأمراء ليعلموا أن عندنا لشيئ كثير. فتركوه ولو علموا ما معه كان أكثر قطعة فيه أذنه " ثم أعطى الرأس للأمراء فاطمأنوا. وقيل أنهم لفوا الرأس وأنزلوه إلى كتبغا[٦]، وفتحوا باب القلعة ودقت البشاير بالنصر[٧]. ثم أمر كتبغا أن يطاف برأس الشجاعي في القاهرة ومصر وظواهرها[٨]، فطاف به المشاعليه[٩]، على رمح وأشهروا قتله، وجبوا عليه القاهرة، ومصر والشوارع والأزقة والطرقات[١٠]. كذلك قيل أن بعض أهل مصر

---

(١) الذهبي: تاريخ الإسلام، مج١٥، ص ٧٦٨.

(٢) ابن عبد الظاهر: تشريف الأيام، ص ٢٧٤.

(٣) أبو المحاسن: مورد اللطافة، ص ٤٦/ الحنبل: شذرات الذهب، ج٥، ص ٤٢٣.

(٤) ابن الفرات: تاريخ الفرات، مج٨، ص ١٨٢.

(٥) بيبرس الدودار: زبدة الفكرة، ج٩، ص ٣٢١.

(٦) ابن عبد الظاهر: تشريف الأيام والعصور، ص ٢٨٠.

(٧) الصفدي: أعيان العصر، ج٥، ص ٧٨/ ذدرشتين: تاريخ سلاطين المماليك، ص ٣١.

(٨) ابن الوردي: تاريخ ابن الوردي، ج٢، ص ٣٤٢/الصفدي: نزهة المالك، ص ١٧.

(٩) المشاعليه: حملة المشعل وهي آلة من حديد كالقفص مفتوح من أعلاه وفي أسفله حرقة توقد فيه النار بالحطب ويحملونه أمام السلطان ونحوه في السفر ليلاً "محمد قنديل: مصطلحات صبح الأعشي، ص ٣١٢".

(١٠) أبو الفضايل: تاريخ سلاطين المماليك، ج٢، ص ٥٨١.

دفع إلى المشاعلية جملة من الفضة حتى أخذ الرأس إلى بيته وضربه بالمداس[١]. وبعض الناس صفعوا الرأس في الطرقات[٢]، وكان مع المشاعلية جراب لتحصيل ما يجبى من الناس على رأس الشجاعي، فملئ الجراب ثلاث مرات، وكلما ملئ فرغوه لأنهم لم يتركوا مكاناً إلا ومروا بالرأس فيه، حتى أماكن التهم والريب والنجاسة وهم يصيحون "هذا رأس الملعون الشجاعي"، فلم يتفق مثل ما اتفق للشجاعي من اجتماع الناس ضده لكراهيتهم له بسبب سوء أفعاله وظلمه ومصادرته وتنوعه في المظالم وعسفه وجبروته[٣]، حتى أن المشاعلية طافت به على بيوت القبط وجعلوا لإهانته سعراً، إذ بلغت اللطمة على وجهه بالمداس نصف درهم، والبول عليه درهماً[٤]. وكان قبل موته أنشد أحد الشعراء فيه شعراً قائلاً:

عند الشجاعي أنواع منوعة من العذاب فلا ترحمه يالله

لم تغن عنه ذنوب قد تحملها من العباد ولا مال ولا جاه[٥]

ولما قتل قيل فيه:

أباد الشجاعي رب العباد وعقباه في الحشر أضعاف ذلك

عصى رأسه فالعصى نعشه وشيع للدفن في نار مالك[٦]

وكان عند مقتله قد قارب الخمسين من عمره[٧]. ثم أنه بعد موته أرسل الملك الناصر الكتب إلى دمشق يخبر بمقتل الشجاعي ويأمر بمصادرة أمواله والقبض

(١) الجزري: حوادث الزمان، ج١، ص ١٩٩.

(٢) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج٨، ص ٤٦.

(٣) ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، مج٨، ص ١٨٣/ حياة الحجي: السلطة والمجتمع، ص ٢٨.

(٤) أبو المحاسن: المنهل الصافي، ج٦، ص ٨٢/ محمد عبد العزيز مرزوق: الناصر محمد ص١١٠.

(٥) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج٨، ص ٥٢.

(٦) أبو المحاسن: المنهل الصافي، ج٦، ص ٨٢، ص ٨٣.

(٧) الصفدي: الوافي، ج١٥، ص ٤٧٧.

على نوابه، فتم ذلك[١].

نهاية بشعة ورحيل موحش لرجل أسرف في ظلمه للناس فكرهوه، وتمنوا لو زال أمره، ولم يعد له وجود. وحينما سنحت الفرصة لم يضيعوها وتكالبوا ضده، بل وأكثرت من ذلك، فقد أهانوه في موته كما أهانهم في حياته، فكان عاقبة أمره خسراً.

- سنجر الشجاعي والعمران الاجتماعي:

ومثلما كانت شدة وقسوة الشجاعي سبباً في أن يسود عصره الهدوء النسبي الداخلي، مما مكنه من الانصراف إلى الفتوحات، فكذلك هذا الهدوء والأمان الداخلي ربما كان سبباً أيضاً في انصرافه إلى عمارة البلاد، إذ تشهد له العمارات بأن له أياد بيضاء جليلة في إقامتها وتشييدها، خاصة ما كان فيها في عصر المنصور قلاوون في مصر، ثم عصر الأشرف خليل في دمشق. ومن ذلك:

- عمارة التربة المنصورية:

كان السلطان المنصور قلاوون قد أسند إلى سنجر الشجاعي عمارة تربة لزوجته وأم ولده[٢]، فكان أن أتم سنجر الشجاعي إقامتها وعمارتها ٦٨٢هـ/ ١٢٨٣م[٣]. ولما فرغ منها الشجاعي نزل السلطان المنصور وولده إليها وتصدقا من موقعها[٤]، ورتبا وقوفها وأحوالها من قراء وفقهاء وغير ذلك؛ فاستحسنها السلطان[٥]. ولما أعجب السلطان بصنيع سنجر الشجاعي في تشييد التربة، قرر أن يسند إليه عمارة بيمارستان ومدرسة ينسبان إليه. وقد كان.

---

(١) الجزري: حوادث الزمان ج١، ص ٢٠٠/ البرزالي: المقتفى، ج١، ص ٣٥٣.

(٢) ابن عبد الظاهر: تشريف الأيام، ص ١٠٨.

(٣) بيبرس الدودار: زبدة الفكرة، ج١، ص ٢٥٣.

(٤) العيني: عقد الجمان، ج٢، ص ٣٠٨/ النويري: نهاية الأرب ج٣١، ص ١٠٥.

(٥) المقريزي: المواعظ: مج٤، ص ٥٨٥.

- عمارة البيمارستان:

لما أعُجب المنصور قلاوون ببناء التربة وسرته منظرها، عزم على إنشاء بيمارستان بالقاهرة، كان سبب التفكير في بناء البيمارستان أمرين؛ أحدهما: أن الملك المنصور لما توجه إلى غزو الروم ٦٧٥هـ/ ١٢٧٧م أصابه المرض، فعالجه الأطباء بأدوية أخذت له من مارستان، فلما برأ ركب إليه ليشاهده فأعجب به ونذر أن أتاه الله الملك أن يبني مارستاناً[١].

أما السبب الآخر: فإن السلطان المنصور قد نذر أن أظهره الله على حدوه من التتار فإنه سيقيم هذا المارستان[٢]، وقد كان أن فعل، فبعد أن تسلطن وانتصر على عدوه شرع في بناءه، وأوعز بهذا العمل إلى سنجر الشجاعي[٣]، الذي كان ذا عزم قوي وحزم وهيبة، واختار لموضعها داراً تعرف بمسكن دار القطيبة خلت بموت سكانها[٤]، وجمع الصناع والعمال لها من مصر والشام[٥]، ومنعهم من العمل في مكان آخر، وكان الشجاعي مهاباً فاستمعوا له ولازموا العمل، ونقل من قلعة الروضة ما احتاج إليه البناء، وصار يركب إليها كل يوم فيقف مع الصناع حتى لا يتكاسلوا في عملهم، وأوقف مماليكه بحيث إذا مر أحد – حتى لو ارتفعت مكانته – ألزموه أن يرفع حجراً ويلقيه من موضع العمارة[٦]. ويذكر أنه يوماً وقع أحد عمال البناء من أعلى السقالة فمات بجانب الشجاعي وأمام عينيه[٧]، فما أكثرث سنجر له

---

(١) المقريزي: المواعظ، مج٤، ص ٦٩٤.

(٢) ابن على الكاتب: الفضل المأثور، ص ١٦٦.

(٣) أبو المحاسن : الدليل الشافي ج١، ص ٣٢٦.

(٤) ابن على الكاتب: الفضل المأثور، ص ١٦٦، ص ١٦٧.

(٥) بيبرس الدودار: زبدة الفكرة، ج٩، ص ٢٥٤/ العيني: عقد الجمان، ج٢، ص ٣٠٨.

(٦) المقريزي: المواعظ، مج٤، ص ٦٩٨.

(٧) الصفدي: الوافي، ج١٥، ص ٤٧٧/ أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج٨، ص ٥١.

ولا حرك ساكناً، وأمر بدفنه[١]، على أنه ليس شرطاً أن يكون ما فعله سنجر الشجاعي من إجبار الجميع حتى المارة على الاشتراك في بناء البيمارستان هو تسخير الناس حتى يكتمل، بل يمكن أن يكون قد أراد من وراء ذلك تفعيل المشاركة المجتمعية وجمع الناس حول عمل اجتماعي إنساني يخدم الجميع. وما دام الأمر كذلك فيجب على الجميع المشاركة.

هذا وقد تم العمل في البناء حيث يضم كل شيء يتعلق بالمرضى، حتى أنه لم ينس أن يخصص فيه بيوت للمجانين، وأخرى للمختلات من النساء. وكذلك مكان لإقامة الحرس والمعسكرات من النساء وبه مراحيض وبستانان متجاوران[٢] لراحة المرضى. وربما وجود بستانين ليكون أحدهما للنساء، والآخر للرجال على غرار تخصيص أماكن للنساء وأماكن للرجال داخل البيمارستان وعلى هذا فتكون فكرة الفصل بين الجنسين وعدم الاختلاط كانت سائدة آنذاك.

ولما فرغ من عمارته وهو على أحسن منظر من البناء ٦٨٢هـ/ ١٢٨٣م نزل فيه السلطان المنصور نفسه، وأحضر له شراباً في قدح، فأمسكه وقال والقضاة الأربع حاضرون "اشهدوا على أنني وقفت هذا البيمارستان على من هو مثلى إلى من دوني"[٣]. ورتب فيه الأخياط المختلفة[٤] والعقاقير والأطباء وسائر ما يحتاج إليه[٥]، بحيث أصبح هذا البيمارستان لا نظير له آنذاك[٦]. هذا ويعتبر البيمارستان

---

(١) أبو المحاسن : المنهل الصافي، ج٦، ص ٨١.

(٢) حجة وقف السطان قلاوون وثيقة ٧٠٦،وصف للمدرسة والبيمارستان.غيرمنشوره،أرشيف وزارة الأوقاف بالقاهرة.

(٣) ابن على الكاتب: الفضل المأثور، ص ١٦٨.

(٤) حجة وقف السلطان قلاوون – وثيقة ٧٠٦.

(٥) المقريزي المواعظ، مج٤، ص ٦٩٦.

(٦) القلقشندي: مأثر الإنافة، ج٢، ص ١٢٤.

المنصوري صورة حية صادقة لاتجاه بعض السلاطين المماليك نحو خدمة هدف الخير، والتصدق على الناس عن طريق توفير الخدمات الطبية والوقاية الصحيه[١].

- عمارة المدرسة المنصورية:

هذه المدرسة من أعمال الأمير سنجر الشجاعي، ولم يأمر السلطان بإنشائها[٢]، كان موقع هذه المدرسة في داخل باب المارستان المنصوري، وأنشئت برعاية علم الدين سنجر الشجاعي[٣]. وقيل أنه في أثناء حفر المدرسة عثر بعض الفعلة على حق من نحاس، ووجد صديقه قمقماً نحاساً مختوماً برصاص، فأحضرا ذلك إلى الشجاعي، فإذا في الحق فصوص ماس وياقوت ولؤلؤ، ووجد في القمقم ذهباً، فحمل الشجاعي كل ذلك إلى السلطان[٤]، الأمر الذي يدل على أمانة الشجاعي، ليس هو فحسب، بل على أمانة البنائين مستخدميه.

وقد رتب سنجر الشجاعي في المدرسة دروساً فقهية على المذاهب الأربعة، وكذلك درساً في الطب[٥]. كما رتب في المدرسة خزائن للكتب بها أرفف وعمل بها سكن للفقهاء، بالإضافة إلى قاعة فسيحة، وزينت بالسواقي[٦]. ووجود السواقي

---

(١) حياة ناصر الحجي: أحوال العامة في حكم المماليك: (٦٧٨ – ٧٨٤هـ/ ١٢٧٩– ١٣٨٢م). الكويت، ط٢، ١٩٩٤، ص٢٢٥.

(٢) ابن على الكاتب: الفضل المأثور، ص ١٦٨/ خالد عزب: العمارة الإسلامية البنية والمستويات. بحث ضمن ندوة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية بعنوان المجتمع المصري في العصرين المملوكي والعثماني. القاهرة، المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٧م، ص ٣٦٦.

(٣) ابن دقماق.صارم الدين إبراهيم: نزهة الأنام في تاريخ الإسلام (٦٢٨هـ/ ١٢٣٠م – ٦٥٩هـ/ ١٢٦١م)، تحقيق: سمير طبارة – صيدا – بيروت – المكتبة العصرية، ط١، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م ،ص٤٠ .

(٤) المقريزي: المواعظ، مج٤، ص ٦٩٥.

(٥) ابن دقماق: نزهة الأنام، ص ٤٠.

(٦) حجة وقف السلطان قلاوون وثيقة ٧٠٦.

والأماكن الفسيحة يدل على أن الشجاعي كان يمتلك الحس واللمسة الجمالية ليطفي على المكان رونق وبهاء وحتى يُرى فيه ما يسر الناظرين.

وقد استخدم الشجاعي في بناء المدرسة نفس العمال المهرة الذين عملوا في بناء البيمارستان، واستخدم الجميع في البناء، ولذلك بعض القضاة رفضوا التدريس في المدرسة؛ لأن الناس عملوا في بنائها بالإلزام، حتى أن بعضهم أفتى بعدم الصلاة فيها، ولكن سنجر ما زال يراجعهم في أمر التدريس حتى وافق بعضهم(١). وقد تم افتتاحها ٦٨٢هـ/ ١٢٨٣م بالتزامن مع افتتاح البيمارستان، حتى أن السلطان المنصور بعد ما خرج من البيمارستان كاد أن لا يدخل المدرسة إعراضاً عنها لأنه لم يأمر بإنشائها، وما زال به الشجاعي حتى دخلها وسر بها وجلس فيها(٢).

- **القبة المنصورية:**

هذه القبة أيضاً من إنشاء وزيادات الشجاعي، وقد أكثر فيها من القراء والذاكرين(٣) ورتب بها درساً للحديث النبوي الشريف ودرساً لتفسير القرآن الكريم(٤)، وكان لايدرس فيها إلا الفقهاء الأجلاء(٥). وتلك البنايات التي ينشأها سنجر الشجاعي من تلقاء نفسه دون الرجوع بالإذن من السلطان إنما تدل على تمكنه وسطوته وعلمه بأن أحداً لا يعارضه، وربما كان حافزه في ذلك أن تلك الأعمال كلها موجهة إلى خدمة المجتمع وقضاء مهام قاطنيه.

---

(١) المقريزي : المواعظ، مج٤، ص ١٦٨.

(٢) ابن على الكاتب: الفضل المأثور، ١٦٨.

(٣) المصدر السابق ص ١٦٩.

(٤) ابن دقماق: نزهة الأنام، ص ٤٠.

(٥) المقريزي: المواعظ، مج٤، ص ٥١٣.

هذا وقد أظهر الشجاعي في إنجاز عمارات التربة والمدرسة والبيمارستان والقبة ما تقصر الهمم دونه[١]، حتى ذكر أنه أنجزها جميعها في مدة سبعة أشهر لاغير، لأنه بدأ فيها أوائل شعبان ٦٨٢هـ/ ١٢٨٣م، وفرغ منها في صفر ٦٨٣هـ/ ١٢٨٤ م[٢]. وقيل فرغ منها في عشرة أشهر[٣]. في حين ذكر المقريزي أنه أتمها في أحد عشر شهر وأيام[٤] وقد أوقف المنصور على هذه البنايات الخيرية أملاكاً وضياعاً بمصر والشام[٥]. وكانت تلك الأعمال العمرانية من أجل أعمال السلطان المنصور قلاوون، حتى أنشد شعراً جاء فيه:

أنشات مدرسته ومارستاناً لتصحيح الأديان والأبدانا[٦].

واختيار المنصور للشجاعي لإنجاز أعمال العمران يدل على أن المنصور على علم بأن سنجر لديه من المؤهلات ما يجعله قادراً على التنفيذ من حيث الدقة والسرعة والقوة والتحفيز، وكذلك يبدو أن المنصور توسم فيه ناحية إبداعية جمالية عمرانية هندسية، الأمر الذي دفعه لأن يختاره لإنجاز هذه الأعمال. كما أن قسوة الشجاعي وشدته وخوف الناس منه ما جعل الناس تطيعه وتنهي عملها في مدة قصيرة، وبالإضافة إلى الشدة والقسوة، فقد كان يتبنى مع العمال أيضاً مبدأ الإثابة، فقد كان يعمل على تحفيز الناس للعمل، وذلك بأن وعد أربعمائة فارس من التتار أسرى الحرب بأنهم متى تحملوا مشاق العمل وأنجزوه سيجعل السلطان المنصور يفك أسرهم، وقد كان. وبيان ذلك أنه في أثناء بناء المدرسة والبيمارستان رأى

(١) العيني: عقد الجمان، ج٢، ص ٣٢٦.

(٢) بيبرس المصوري: مختار الأخبار، ص ٨٥.

(٣) ابن دقماق: النفحة المسكية، ص ٧٩.

(٤) المواعظ، مج٤، ص ٦٩٤.

(٥) ابن خلدون: العبر، ج٥، ص ٤٠٣.

(٦) السيوطي: حسن المحاضر: ج٢، ص ٢٠٣.

الشجاعي أحد العاملين من التتر قد قصر عن العمل، فضربه سنجر وأصاب عينه، فبكى الرجل ونزل إلى أقرانه فبكوا لبكائه، وتحدثوا مع الشجاعي في أن يرفق بهم ليرفق الله به يوم الحاجة، فإنهم كانوا يطلعون بالحجر وينزلون بالتراب، فلما رأى حالهم تأثر وبكى لحالهم، وذكروا له أن كلاً منهم يملك في بلده عائلة وبساتين وأملاك، وقد قُدر لهم أن يقعوا أسرى، وسألوا الشجاعي "إما أن تقتلونا أو ترفقوا بنا"، فطيب الشجاعي قلوبهم، ووعدهم بعد تمام العمل أن يكلم السلطان في أمرهم، وأمر لهم بالكسوة. وحينما افتتح المنصور هذه العمارات قبّل هؤلاء الأسرى الأرض بين يديه، ثم أعلمه الشجاعي بأن هؤلاء هم من استعملوا في العمارة، وأشار عليه بعتقهم وبأنه ضمن لهم منه ذلك، فرفض السلطان في بادئ الأمر، وحجته في هذا أن هؤلاء من أعداءه، وأنهم كانوا قادمين لقتاله، وهو إن أعتقهم لا يأمن شرهم وغدرهم. وأعلم الشجاعي أنه لن يخذله أمامهم وأنه سينزلهم في ثغر الإسكندرية، فأشار عليه الشجاعي أن ينزلهم في قوص ليكونوا سداً بين المسلمين وبلاد السودان، فكان أن وافق المنصور قلاوون(١).

- خليج الطيرية(٢):

أسند السلطان المنصور قلاوون في ٦٨٢هـ/ ١٢٨٣م حفر خليج الطيرية إلى سنجر الشجاعي،الذي قام بالإشراف على حفره، ونادى على الجند بالخروج للحفر. وقد تم إنجازه في عشرة أيام. وقد استفاد الناس منه أيما استفادة، حيث رُوي منه مالم يكن يُروى قبله في أي من السنين(٣).

---

(١) الخزنداري: تاريخ مجموع النوادر، ص ٢٩٤، ص ٢٩٦.

(٢) خليج الطيرية: ترعة الطيرية في البحيرة، تخرج من النيل قرب قرية مسماه بهذا الاسم، وأصبحت تعرف باسم ترعة الحاجر "المقريزي: السلوك ج١، ق٣، حاشية، ص ٧١٢".

(٣) ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، مج ٧، ص ٢٦٠.

هذا ما كان من عمران شيده سنجر الشجاعي في مصر في عصر المنصور قلاوون. كذلك لم يفت الشجاعي أن يترك بصمته العمرانية في دمشق حينما تولى نيابتها في عصر الملك الأشرف خليل ومن ذلك أنه لما استقرت نيابة دمشق له، شرع في عمل دور له بقلعة دمشق بناءاً على اقتراح من الملك الأشرف له بذلك، فبدأ الشجاعي في العمارة، وبعث في طلب الرخام من سائر الجهات ليتم عمارة الدور(١). كما شرع الشجاعي في عمارة القبة الزرقاء ودور الحريم بقلعة دمشق، فحشد لذلك الصناع والرجال(٢)، وأمرهم بإخراب ما على الجسر هناك من الحوانيت حتى باب الميدان الأخضر بدمشق، فتم له ما أراد، ولم يُبق غير المساجد(٣).

ثم قام الشجاعي بتوسيع الميدان الأخضر بدمشق، وعمل في عمارته جميع الأمراء والمقدمين والعسكر وأكثر أهل دمشق، إذ أن الشجاعي قسم العمل فيه على الناس، حتى هو أخذ نفسه بجزء من العمل، فلما رأوه الناس قد عمل بنفسه، لم يجرأ أحد أن يتخلف عن العمل لأن الشجاعي كان مهيباً سلطاً جباراً، ففرغ العمل في يومين(٤). وبعدما تم توسيع الميدان أنشد أحد الشعراء.

أعلم الأمير بأن سلطان الورى يأتي دمشق ويُطلق أموالاً

فلأجل ذلك زاد في ميدانها ليكون أوسع للجواد جمالاً (٥)

---

(١) ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، مج٨، ص ١٢٨، ص ١٢٩/ النويري: نهاية الأرب، ج٣١، ص ٢٢١.

(٢) اليافعي اليمني: مرأة الجنان، ج٤، ص ٢١٩/ ابن حبيب :تذكرة النبيه، ج١، ص ١٤/ الدمشقي: أعلام الورى، ص ٩.

(٣) النويري: نهاية الأرب، ج٣١، ص ٢٢٢.

(٤) الجزري: حوادث الزمان، ج١، ص ٦٠.

(٥) أبو المحاسن: المنهل الصافي، ج٦، ص ٨٢.

- سنجر الشجاعي ما له وما عليه:

ولكل شخص محاسنه ومساوئه فهذه طبيعة البشر، والظروف المحيطة أحد الأسباب المهمة التي تبرز جوانب الشخصية هذه أو تلك. وكما أظهر التاريخ جوانب سلبية في حياة سنجر الشجاعي، كذلك من لم يغفل ذكر لبعض من إيجابياته. ولهنا فمن الإنصاف استعراضها ليُوفى حقه.

أما البداية فمع ما اتصف به الشجاعي من مساوئ وسلبيات ومنها أنه كان في وزارته شديدا، كثير العنف والمصادرات، محصلاً للأموال من وجوهها وغير وجوهها، شديداً على الرعية، أوقع الرعب في قلوبهم حتى كرهوه، وتمنوا لو زال ملك المنصور قلاوون بسببه(١).

ويبدو إسناد أمر تحصيل الأموال إليه نظراً لما تميز به من طرق لتحصيلها، فقد كان لا يستصعب عليه شيء من أمرها. ويروى أن الملك المنصور كان له صديق يسمى عز الدين الأفرم، وكان عزيزاً عنده، وله متاجر وأموال كثيرة، فكان إذا طلب الشجاعي مالاً أو حقاً فيقال للشجاعي هو في جهة الأمير عز الدين الأفرم، فقرر الشجاعي عليه أن يتحمل إلى خزانة البلاد أربعمائة ألف درهم، ولما اشتكى الأفرم إلى الملك المنصور زيادة ما يحمله إلى الخزانة، استدعى المنصور الشجاعي وسأله لما يثقل المال على الأفرم؟ فكان جواب الشجاعي أنه قال للأفرم: "أخرج زكاة مالك، فإن اختار أن يعطيها هو يعرف لمن يعطيها، وإن لم يُعطيها وإلا هو يعرف عن من يمنعها". فكان رد المنصور على الأفرم أن قال له: "اتق الله في نفسك وما مقدار ما بقينا نعيش... أعطى زكاة مالك"(٢).

---

(١) ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، مج، ٨، ص ٩٦.

(٢) الخزنداري: تاريخ مجموع النوادر، ص ٢٨٤، ص ٢٨٥.

كما أن الأفرم كان قد عمل بركة وقفاً، فلما مات طمع علم الدين سنجر في ورثته وفي الوقف، فاغتصب الأرض المقامة عليها البركة[١] ويُفهم من هذا أن المنصور كان موكلاً الشجاعي في أمر الأوقاف،كما يُفهم من كلام المنصور قلاوون أن ما يفعله الشجاعي من شدة وعسف في استخراج الأموال وإكثارها من الناس لم يكن يكترث له، أو أنه لاقى هوى في نفسه، ولذلك ظل يعين الشجاعي على الأموال كلها، بل وأكثر من ذلك فقد أعطى المنصور قلاوون للسنجر الشجاعي الحق في أن يتولى القبض على من يصدر في حقه أمر بذلك[٢]، حتى أن دار سنجر الشجاعي نفسها عُدت محبساً كان يُسجن فيها من يصدر عليه حكم بالسجن[٣]. ولم يقتصر سنجر في عقابه للمخالف على السجن فقط، بل تعداه إلى الضرب بالمقارع[٤]. ليس هذا فحسب، بل توسعت سلطاته حتى أصبح بيده أمر الإفراج عن المحبوسين، إذ يذكر عن الشجاعي أن أحد المحبوسين طلب منه أن يفرج عنه، فقال الشجاعي: والله ما أفرج عنه حتى يمدحني بقصيدة" فلما مدحه الرجل أصدر الشجاعي أمره بالإفراج عنه[٥]. ويبدو أن تعليق الإفراج عن الرجل مقابل إصداره قصيدة مدح للشجاعي يدل على أن الشجاعي كانت تطوق نفسه إلى الثناء والمدح، وحتى يخلد ذكره بقصيدة بها ثناء عليه تقلل من وطأة إحساسه بكراهية الناس له.

---

(١) المقريزي: المواعظ مج٣، ص ٥٢٨.

(٢) الجزري: حودث الزمان، ج١، ص ٦٧.

(٣) المقريزي: السلوك ج١، ق٣، ص ٦٦٦/ محمود رزق سليم : تاريخ سلاطين المماليك، ج٢، ص ٩٧.

(٤) الكتبي: عيون التواريخ، ص ٤٠٢، ص ٤٠٣.

(٥) الصفدي : أعيان العصر، ج١، ص ٣٤٩.

كل هذه الاختصاصات والامتيازات التي كانت ممنوحة لسنجر الشجاعي تُعلمنا مدى قربه من المنصور قلاوون، فقد كان سنجر ملازماً للسلطان في كل وقت. تلك المكانة التي حازها سنجر مع سلطانه الملك المنصور قلاوون هي نفسها التي اعتلاها عندما تولى الملك الأشرف مُلك الديار المصرية خلفاً للمنصور قلاوون، فقد ظلت لسنجر في عهد الملك الأشرف نفس الامتيازات والاختصاصات والوظائف التي تمتع بها في عهد المنصور. ولم لا ؟ وهو الذي به تستقيم أمور كثيرة يرفع عناءها وحملها عن السلطان، فقد كان الشجاعي ملماً بكل شيء من أحوال مصر ورجالها، حتى أن الأشرف سأله يوماً عن جماعة من الرجال كانوا مدرجين في الحبس من أيام والده المنصور فيم حُبسوا؟ فكان أن وافاه سنجر بخبر كل رجل ممن كان في الحبس وقص عليه رواياتهم. ليس هذا فحسب، بل كان الأشرف يستشير سنجر في أمور دولته فيشير عليه(١). كما كان يقبل شفاعة سنجر فيمن يتقدم له بالشفاعة، فهو الذي تشفع في كتبغا عند الملك الأشرف ليفرج عنه من سجنه، وقد كان كتبغا هذا محبوساً من أيام الملك المنصور ٦٨٠هـ/ ١٢٨١م(٢). وكذلك تشفع في مجموعة من الكتاب النصارى عند الملك الأشرف، وذلك أن أحد هؤلاء الكتاب النصارى كان كاتباً عند أحد الأمراء، فصادف هذا النصراني سمساراً كان عليه مال لهذا الأمير، وطالب النصراني السمسار بهذا المال أو يقبض عليه، وبالفعل قبض النصراني على السمسار وبالغ في اهانته، فتجمع المسلمين على النصراني وأوجعوه ضرباً وذهبوا إلى قصر السلطان الأشرف فتجمهروا عنده يشكون له من تسلط النصارى على المسلمين وتمكنهم من البلاد، فأمر الأشرف بقتل الكتاب النصارى، فما زال سنجر الشجاعي وبيدرا

(١) العيني: عقد الجمان، ج٣، ص ٣٧.

(٢) المقريزي: المواعظ، مج٣، ص ٢٢٦.

يتشفعان فيهم عند الأشرف حتى قبل شفاعتهما بشرط ألا يستخدم أحد من الأمـــراء نصرانياً ولايهودياً[١] وقد كان.

وقد كان أهل الذمة في غاية الذلة والإهانة خصوصاً في أيام الشجاعي الذي كان له حرمة وافرة عظيمة على المسلمين عامة وأهل الذمة خاصة، حتى أن أهل الذمة من شدة خوفهم منه كان أكبر من فيهم راكب على دابته مرتدياً زيه الخـــاص بملته، ولا يجسر أن يتحدث مع مسلم وهو راكب[٢].

هذا الخوف وتلك الرهبة لسنجر لم تكن في نفوس أهل الذمة فقط، بل كانت أيضاً له في نفوس المسلمين، وحسبنا في هذا أن القاضي ابن بنت الأعـــز[٣] لمـــا تولى سنجر الشجاعي نيابة دمشق فإنه طلب من الشجاعي إذناً (دستوراً) للسفر إلى مصر خوفاً منه، فأذن له الشجاعي بذلك[٤]، تلك الشفاعات التي بذلها الشجاعي لمن تشفع فيه تدل على أنه لم يكن كله شر، شأنه شأن البشر الجـــامع لصـــفتي الخيـــر والشر، وهو وإن كان له رهبة في نفوس أهل الذمة، فقد ثبت أنه تشفع فيهم حـــين صدر أمر الأشرف بإبادتهم، مع أنه من الممكن إن قسى عليهم أن تفســـر قســـوته بأنها واجبة حتى لا يفتح مجال للفتن الطائفية. وكذلك يظهر لطفه في إذنه لابن بنت الأعز، فقد ثبت أنه لم يضيق عليه ويلزمه البقاء في دمشق، فقد أذن له في الذهاب إلى مصر.

---

(١) المقريزي: المواعظ، مج٤، ص ١٠١٤، ص ١٠١٥/يعقوب نخله روفيله: تاريخ الأمة القبطية . القاهرة، ط٣، ٢٠٠١م، ص٢١٠ ص٢١١.

(٢) العيني: عقد الجمان، ج٣، ص ١٨١.

(٣) ابن بنت الأعز: القاضي علاء الدين أحمد بن عبد الوهاب. كان فصيح العبارة، جميل الصورة، لطيف المزاج، فيه مكارم أخلاق وإحسان، تولى الحسبة بالقاهرة، وقدم دمشق متولياً نظر ديوان الأمير حسام الدين طرنطاي، درس بالمدرسة الظاهرية وقدم إلى القاهرة فأقام فيها إلى وفاته ٦٩٩هـ/ ١٢٩٩م "العيني: عقد الجمان، ج٤، ص ٩٤، ص ٩٥".

(٤) العيني: عقد الجمان ج٤، ص ٩٥.

وبعيداً عن القسوة والجبروت والخوف، فقد أثر من الشجاعي أنه كان ميالاً للترف، فقد كان له عدة من الخيل والمماليك الترك. ويمتلك من الزينة والذهب الكثير[١]. وكان يركب في موكبه بهيئة لا تنبغي إلا لسلطان[٢]. كما كان لدى الشجاعي ميل لأهل العلم، حافظاً للإسلام حقه معظماً له[٣]، لا يخلو من تدين في شخصيته، فقد خرج ذات مرة ماشياً بعسكره ومعه العوام والخواص من الناس إلى الصحراء يبكون ويتضرعون إلى الله أن ينزل عليهم الغيث (المطر) وصلى مع هؤلاء صلاة الاستسقاء حتى أفاض الله عليهم من رحمته[٤]. وسأل الشجاعي ذات يوم شيخاً أن يدعوا له، فقال له الشيخ، يا علم الدين، قد دعا لك ودعا عليك من هو خير مني.

وبالجملة، فقد كان للشجاعي محاسنه، إلا أنه كان أكثر ما ذكر به أنه كان ظالم الصورة، عنده قسوة زائدة، إذ ظفر بأحد لا يرحمه[٥]. ولولا جوره لكان يصلح للملك[٦]. ولذلك لما قتل لم يرثه أحد من الناس، فكان كما قيل في المعنى.

لا تفعل الشر فتسمى به وافعل الخير تجازى عليه

أما ترى الحية من شرها يقتلها من لا أساءت إليه[٧].

---

(١) الذهبي: تاريخ الإسلام، مج١٥، ص ٧٦٧.

(٢) أبو المحاسن: المنهل الصافي، ج٦، ص ٨١/ الصفدي: الوافي، ج١٥، ص ٤٧٦.

(٣) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج٨، ص ٥١.

(٤) الجزري: حوادث الزمان ج١، ص ١٢١، ص ١٢٢.

(٥) ابن إياس: بدائع الزهور، ج١، ص ٣٨٤.

(٦) الذهبي: تاريخ الإسلام، مج١٥، ص ٧٦٨.

(٧) ابن إياس: بدائع الزهور، ج١، ص ٣٨٤.

ثبت المصادر والمراجع

أولاً : وثائق غير منشورة

أرشيف وزارة الأوقاف، القاهرة. حجة وقف السلطان قلاوون، وثيقة ٧٠٦.

ثانياً : المصادر

-ابن إياس: محمد بن أحمد الحنفي (٩٣٠ه/١٥٢٤م)

بدائع الزهور في وقائع الدهور. تحقيق: محمد مصطفى . القاهرة- الهيئة المصرية العامة للكتاب- ط٢، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م.

-ابن أيبك الدواداري. أبوبكر عبد الله (٧٣٦ه/١٣٣٥م)

كنز الدرر وجامع الغرر "الدرة الزكية في أخبار الدولة التركية". تحقيق : أولرخ هارمان. القاهرة، ١٣٩١هـ/ ١٩٧١م.

-ابن الجزري. شمس الدين محمد بن إبراهيم (٧٣٩ه/١٣٣٩م)

تاريخ حوادث الزمان وأنبائه ووفيات الأكابر والأعيان من أبنائه. تحقيق: عمر عبد السلام تدمري. المكتبة العصرية. صيدا – بيروت، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٦م.

-ابن حبيب.الحسن بن عمر بن الحسن (٧٧٩ه/١٣٧٧م)

تذكرة النبيه في أيام المنصور ونبيه. تحقيق: محمد محمد أمين. القاهرة. مطبعة دار الكتب، ١٩٧٦م.

-ابن خلدون.عبد الرحمن بن محمد المغربي (٨٠٨ه/١٤٠٦م)

العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر- بيروت – لبنان – مؤسسة الأعلمي، ١٣٩١هـ/ ١٩٧١م.

-ابن دقماق: صارم الدين إبراهيم بن محمد (٨٠٩ه/١٤٠٦م)

نزهة الأنام في تاريخ الإسلام(٦٢٨هـ/ ١٢٣٠م- ٦٥٩هـ/ ١٢٦١م) تحقيق: سمير طباره، صيدا، بيروت – المكتبة العصرية، ط١، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م.

-النفحة المسكية في الدولة التركية من كتاب الجوهر الثمين في سير الخلفاء والملوك والسلاطين. تحقيق :عمر عبد السلام تدمري. المكتبة العصرية – صيدا – بيروت، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م.

-ابن سباط. حمزة بن أحمد بن عمر (٩٢٦ه/١٥٢٠م)

تاريخ ابن سباط صدق الأخبار . تحقيق : عمر عبد السلام تدمري. طرابلس . جروس برس، ط١، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م.

-ابن صصري. محمد بن محمد (٨٠٠ه/١٣٩٧م)

الدرة المضيئة في الدولة الظاهرية. تحقيق وليم. م. برند – لندن – كابريدج، ١٩٦٣م.

-**ابن عبد الظاهر. محي الدين أبو الفضل عبد الله (٦٩٢هـ/١٢٩٣م)**
تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور. تحقيق : مراد كامل. القاهرة – الشركة العربية للطباعة والنشر، ط١، ص ١٩٦١م.
-**ابن على الكاتب. شافع العسقلاني (٧٣٠هـ/١٣٣٠م)**
الفضل المأثور من سيرة السلطان الملك المنصور. تحقيق: عمر عبد السلام تدمري. صيدا – بيروت – المكتبة العصرية، ط١، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م.
-**ابن الفرات: ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم (٨٠٧هـ/١٤٠٤م)**
تاريخ ابن الفرات. تحقيق : قسطنطين زريق/نجلا عزالدين– بيروت– المطبعة الأميركانية ١٩٣٩م.
-**ابن المغيزل.نور الدين على بن عبد الرحيم الكاتب (٧٠١هـ/١٣٠٢م)**
ذيل مفرج الكروب في أخبار بني أيوب. تحقيق : عمر عبد السلام تدمري. المكتبة العصرية، صيدا – بيروت، ط١، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م.
-**ابن الوردي. زين الدين عمر (٧٤٩هـ/١٣٤٨م)**
تاريخ ابن الوردي . المطبعة الحيدرية – النجف، ط٢، ١٣٨٩هـ/ ١٩٦٩م.
-**أبو الفدا. عماد الدين إسماعيل (٧٣٢هـ/١٣٣١م)**
المختصر في أخبار البشر. القاهرة – المطبعة الحسينية، د. ت.
-**أبو المحاسن بن تغري بردي (٨٧٤هـ/١٤٧٠م)**
النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة. دار الكتب المصرية – القاهرة، ١٣٥٨هـ/ ١٩٣٩م
-الدليل الشافي على المنهل الصافي . تحقيق : فهيم شلتوت– المملكة العربية السعودية – مركز البحث العلمي وإحياء التراث، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م.
-المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي. تحقيق: محمد محمد أمين – القاهرة . الهيئة المصرية العامة للكتاب، مركز تحقيق التراث، ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م.
-مورد اللطافة فيمن ولي السلطنة والخلافة. تحقيق: نبيل محمد عبد العزيز. القاهرة. دار الكتب المصرية، ١٩٩٧م.
-**الإسحاقي : محمد عبد المعطي المنوفي(١٠٩٠هـ/١٦٥٠م)**
لطائف أخبار الأول فيمن تصرف في مصر من أرباب الدول. تحقيق: عبد الرحيم عبد الرحمن، الكويت– ٢٠٠٢م.
-**اسطفان الدويهي الأنطاكي الماروني (١١١٦هـ/١٧٠٤م)**
تاريخ الأزمنه. نشره : بطرس فهد – لبنان، جونيه، ١٩٧٦م.

-بامخرمه. أبو محمد الطيب بن عبد الله (٧٤٩هـ/١٥٤٠م)
قلادة النحر في وفيات أعيان الدهر. تحقيق : محمد يسلم عبد النور . اليمن – صنعاء. وزارة الثقافة والسياحة، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م.
-البرزالي. القاسم بن محمد الدمشقي (٧٣٩هـ/١٣٣٩م)
المقتفي على كتاب الروضتين المعروف بتاريخ البرزالي. تحقيق. عمر عبد السلام تدمري- بيروت- صيدا – المكتبة العصرية، ط١، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م.
-بيبرس الدودار المنصوري (٧٢٥هـ/١٣٢٥م)
مختار الأخبار. تاريخ الدولة الأيوبية ودولة المماليك البحرية حتى ٧٠٢هـ. تحقيق: عبد الحميد صالح حمدان. القاهرة الدار المصرية اللبنانية، ط١، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م.
-زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة. تحقيق: زبيدة محمد عطا- القاهرة- عين للدراسات والبحوث، ٢٠٠١م
-الحنبلي: العماد أبوالفلاح عبد الحي (١٠٨٩هـ/١٦٧٩م)
شذرات الذهب في أخبار من ذهب- القاهرة – مكتبة القدس، ١٣٥١م.
-حيدر أحمد الشهابي:
الغرر الحسان في تواريخ حوادث الأزمان، القاهرة. مطبعة السلام، ١٩٠٠م.
-الخزنداري: قرطاي العزي (٧٠٨هـ/١٣٠٩م)
تاريخ مجموع النوادر مما جرى للأوائل والأواخر (٦١٦- ٦٩٣هـ). تحقيق: عمر عبد السلام تدمري .المكتبة العصرية- صيدا – ببيروت ، ط١، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م.
-الدمشقي. شمس الدين محمد بن على بن طولون (٩٥٣هـ/١٥٤٦م)
أعلام الورى فيمن ولي نائباً من الأتراك بدمشق الشام الكبري. تحقيق: عبد العظيم حامد خطاب كلية الآداب. جامعة عين شمس، ١٩٧٣م.
-الذهبي. شمس الدين أبوعبد الله محمد بن أحمد (٧٤٨هـ/١٣٤٨م)
العبر في خبر من غبر. تحقيق :أبو طاهر محمد السعيد. بيروت – لبنان- دار الكتب العلمية ١٩٨٥م.
-تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام. تحقيق: بشار عواد معروف. بيروت – دار الغرب الإسلامي، ط١، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م.
-زردشتين:
مساهمات تاريخ سلاطين المماليك من عام ٦٩٠- ٧٤١هـ طبقاً للمخطوطات العربية . ليدن- بريل، ١٩١٩م.

-السيوطي: جلال الدين (ت ٩١١هـ/١٥٠٥م)
كوكب الروضة في تاريخ النيل وجزيرة الروضة. تحقيق: محمد الششتاوي. دار الأفاق العربية. ط١. ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠٢م.
-حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة. تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم – بيروت – المكتبة العصرية، ط١، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م.
-صالح بن يحيى (٨٥٠هـ/١٤٤٦م)
تاريخ بيروت وأخبار البحتريين من بني العرب. نشره: لويس شيخو اليسوعي. المطبعة الكاثوليكية. بيروت، ١٩٢٧م.
-الصفدي: صلاح الدين خليل (٧٦٤هـ/١٣٦٣م)
الوافي بالوفيات: ألمانيا – فرانزشتاينر – ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م.
-أعيان العصر وأعوان النصر. تحقيق : على أبو زيد وآخرون. دار الفكر المعاصر – بيروت – لبنان– ط١، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م.
-نزهة المالك والمملوك في مختصر سيرة من ولى مصر من الملوك. يؤرخ من عصر الفراعنة والأنبياء حتى ٧١٧هـ. تحقيق : عمر عبد السلام تدمري. بيروت– صيدا – المكتبة العصرية، ط١، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م.
-الصقاعي: فضل الله بن أبوالفخر(٧٢٦هـ/١٣٢٥م)
تالي وفيات للأعيان. تحقيق: جاكلين سويلة – دمشق، ١٩٧٤م.
-العيني: بدر الدين محمود (٨٥٥هـ/١٤٥١م)
عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان. عصر سلاطين المماليك. تحقيق: محمد محمد أمين. القاهرة– الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.
-القلقشندي. على من أحمد (ت ٨٢١هـ/ ١٤١٨م)
مأثر الأنافة في معالم الخلافة. تحقيق : عبد الستار أحمد فراج . بيروت . عالم الكتب، ن. ت.
-الكتبي. محمد بن شاكر (٧٦٤هـ/١٣٦٢م)
عيون التواريخ. تحقيق: فيصل السامر /نبيلة عبدالمنعم داود– العراق. دائرة الشئون الثقافية والنشر، ١٩٨٤م.
-مفضل بن أبوالفضايل (٧٥٩هـ/١٣٥٨م)
تاريخ سلاطين المماليك النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد. تحقيق : بلوشت ادجار. فرنسا – باريس، ٢٠٠٤م.
-المقريزي. تقي الدين أحمد بن على (ت ٨٤٥هـ/ ١٤٤٢م)
السلوك لعرفة دول الملوك. نشره، محمد مصطفى زيادة – القاهرة– لجنة التأليف والترجمة

النشر، ١٩٩٤م

-المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والأثار. تحقيق : أيمن فؤاد سيد . لنـــدن. مؤسســـة الفرقـــان للتراث الإسلامي، ١٤٢٤هـــ/ ٢٠٠٣م.

-النويري: شهاب الدين أحمد عبد الوهاب (٧٣٣هـ/١٣٣٣م)

نهاية الأرب في فنون الأدب. تحقيق الباز العريني – القاهرة – الهيئة المصرية العامة للكتـــاب، ١٤١٢هـــ/ ١٩٩٢م.

-النويري:.محمد بن قاسم بن محمد (٧٧٥هـ/١٣٧٢م)

الإلمام بالإعلام فيما جرت به الأحكام والأمور المقضية في وقعة الإسكندرية. تحقيـــق : عزيـــز سوريال . حيدر أباد – الدكن. الهند، ١٣٩٣هـــ/ ١٩٧٣م.

-اليافعي اليمني. عبد الله بن أسعد (٧٦٨هـ/١٣٦٧م)

مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حـــوادث الزمـــان. القـــاهرة. دار الكتـــاب الإسلامي، ط٢، ١٤١٣هـــ/ ١٩٩٣م.

-ياقوت الحموي. أبوعبد الله (٦٢٦هـ/١٢٢٩م)

معجم البلدان. ألمانيا – معهد تاريخ العلوم العربية، ١٤١٥هـــ/ ١٩٩٤م.

-اليونيني: قطب الدين موسى بن محمد (٧٢٦هـ/١٣٢٦م)

ذيل مرآة الزمان– حيدر آباد – الدكن – الهند، ط١، ١٣٨٠هـــ/ ١٩٦١م.

-يوسف الدبس:

تاريخ سوريه– بيروت. المطبعة العمومية الكاثوليكية، ١٨٩٣هـ/١٩٠٥م.

ثالثاً : المراجع

-السيد الباز العريني:

المماليك. دار النهضة العربية. بيروت، ١٩٦٧م.

-حكيم أمين السيد:

قيام دولة المماليك الثانية– القاهرة– الدار القومية للطباعة والنشر– ١٩٦٦م.

-حياة ناصر الحجي:

أحوال العامة في حكم المماليك (٦٧٨– ٧٨٤هـــ/ ١٢٧٩– ١٣٨٢م). الكويت، ط٢، ١٩٩٤م.

-السلطة والمجتمع في سلطنة المماليك (٦٦١–٧٨٤هـــ/ ١٢٦٢– ١٣٨٢م) دراســـة تاريخيـــة وثائقية، الكويت – جامعة الكويت – لجنة التأليف والتعريب والنشر، ط١، ١٩٩٧م.

-خالد عزب:
العمارة الإسلامية البنية والمستويات. بحث ضمن ندوة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية بعنوان المجتمع المصري في العصرين المملوكي والعثماني. القاهرة. المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٧م.

-سعيد عبد الفتاح عاشور:
العصر المماليكي في مصر والشام. القاهرة. دار النهضة العربية، ط٢، ١٩٧٦م.

-على إبراهيم حسن:
تاريخ المماليك البحرية وفي عصر الناصر محمد بوجه خاص. القاهرة- مكتبة النهضة المصرية، ١٩٤٤م.

-فايد حماد محمد عاشور.
الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين والمغول في العصر المملوكي. جروس برس – طرابلس – لبنان ط١، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م.

-محمد عبد العزيز مرزوق:
الناصر محمد بن قلاوون. القاهرة. وزارة الثقافة والإرشاد القومي، ١٩٦٤م.

-محمد قنديل البقلي:
التعريف بمصطلحات صبح الأعشي. القاهرة – الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٣م.

-محمود رزق سليم:
عصر سلاطين المماليك . القاهرة- مكتبة الآداب، ١٣٦٦هـ/ ١٩٤٧م.

-وليم موير:
تاريخ دولة المماليك في مصر . ترجمة: محمود عابدين/ سليم حسن . القاهرة.مكتبة مدبولي . ط١، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م.

-يعقوب نخله روفيله:
تاريخ الأمة القبطية – القاهرة، ط٣، ٢٠٠١م.